كلمة العدد

العولمة والقيم العربية الخالدة

بقلم سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

تناولت في هذا المكان منذ فترة بعض المحاذير التي تحوط النظام العالمي الجديد وهو العولمة . . العولمة اليوم أصبحت واقعاً جيداً للبعض ومراً للبعض الآخر وخاصة الدول النامية . . المحور الرئيسي للعولمة هو الاقتصاد وهو ما تتناوله اتفاقية التجارة العالمية الحرة والشركات عابرة القارات أو متعددة الجنسيات ولكن الجانب الاقتصادي في العولمة مرتبط ارتباطاً يكاد يكون عضوياً بالنشاطات الإنسانية الأخرى وخاصة القيم الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية التي قامت عليها كثير من الحضارات القديمة والتي شكلت طوال التاريخ وجدان أجيال وراء أجيال وبالذات منطقتنا العربية .

لقد رسخ العرب طوال تاريخهم مجموعة من القيم العظيمة عاشوا عليها ودافعوا عنها واتخذوا منها قانونهم غير المكتوب الذي يعرفه الجميع ويخضع له الجميع ولا يجرؤ إنسان أن يخرج عليه فإذا حدث كان العقاب الرادع وكان

النفي من بين أحضان القبيلة . . هذا القانون غير المكتوب اعتمد كما قلت على مجموعة من القيم الإنسانية العظيمة التي تحكم العلاقات في المجتمع العربي . . وهي الكرم والشجاعة والنجدة وحماية المستجير والحياء والشهامة وحماية الأرض والعرض والوفاء واحترام العهد حتى ولو كان الثمن التضحية بالروح والابن والمال . . هذه القيم عاش عليها المجتمع العربي قديماً وشكلت وجدانه رغم أن هذا المجتمع كان يعيش في بيئة شديدة القسوة وهي الصحراء، فقد كان سكان الحضر يحرصون على إرسال أبنائهم الصغار إلى البادية العربية ليشبوا على هذه القيم التي كانوا يتعلمونها بالممارسة لا من مدرسة ولا من كتاب فإذا عادوا، عادوا رجالاً يتمتعون بأخلاق الفروسية وهي الأخلاق التي حملها العرب معهم إلى الأندلس والتي انتقلت إلى أوروبا فنشأت عليها ظاهرة الفروسية الشهيرة في أوروبا القرون الوسطى وهذا حديث آخر ونعود إلى القيم العربية . . هذه القيم كما قلت شكلت وجدان الإنسان العربي وشادت أركان حضارة اعتمدت اعتماداً تاماً على الأخلاق رغم أن مقومات الحضارة المعروفة لم تكن متوافرة في البادية مثل الأنهار أو الاستقرار إلا أن هذه القيم عوضت كل ذلك وعوضت الضيق الاقتصادي الذي كان يحوط سكان البادية وخلقت مجتمعاً متحضراً متماسكاً صلباً نبغ فيه نجوم من عباقرة الشعر والنثر والحكمة والتراث العظيم الذي مازال حتى الآن زاداً وافراً للباحثين عن الأصالة والعراقة .

وعندما أطل فجر الإسلام العظيم على البشرية كان من عظمة هذا الدين الذي جاء ليحدد مسار الإنسان في الكون أن أقر الكثير من هذه القيم واحترمها ودعا للتمسك بها والحرص عليها بل وأضاف إليها من المعاني والأبعاد والآثار ما جعلها دستوراً للإنسان المسلم في كل زمان ومكان .

وقد عاش المجتمع الإسلامي في ظل هذه القيم عمراً طويلاً كانت فيه الحضارة الإسلامية أعظم نور أطل على البشرية طوال تاريخها . وبفضل هذه القيم قامت دول إسلامية عظيمة حققت لشعوبها كل ما يطمحون إليه من تقدم اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي . . وكان المجتمع المسلم مثالاً يثير الحسد لدى أبناء الغرب الذين كانوا يعيشون في ظلام القرون الوسطى ووحشيتها

وهمجيتها وجهلها وتخلفها . في أزمان التراجع ضاع الكثير من هذه القيم وقد عمل الاستعمار جاهداً في عصور الاستعمار التي تعرضت لها المنطقة على طمس معالم هذه القيم وعلى غرس قيم أخرى غريبة ووافدة سقط الكثيرون للأسف في فخاخها ونسجوا بأسلوب القرود على منوالها واعتبروا ما جاء به الأوربيون تقدماً وما انحدر إليهم من التاريخ العربي تخلفاً وبدأت القيم العظيمة في التراجع بل في الاختفاء من ذهن أعداد كبيرة وخاصة من أبناء الجيل الجديد الذين فتح لهم التليفزيون وفتحت لهم الفضائيات الكثيرة والعديدة والمشبوهة نوافذ عريضة على مجتمع غريب وعلى قيم غريبة وعلى تقاليد أضاعت أجيال الغرب ودفعت بهم إلى حافة الضياع . ثم جاءت العولمة وأخذت تجهز على البقية الباقية . .

العولمة كما قلت تعتمد اعتماداً كلياً على التجارة الحرة . . والتجارة الحرة تمس من قريب أو بعيد مختلف الأنشطة الإنسانية . . على سبيل المثال لا الحصر . . الملابس كما هو معروف هي مظهر ملتصق التصاقاً كبيراً بالأخلاق وبالتقاليد وبالقيم . . ولكن هذه الملابس هي أيضاً صناعة وتجارة وركن من أركان التجارة الحرة . . من هنا كان لابد أن تتعرض لهجمة تطمس معالمها وتبدل من مقاييسها حتى تعمل مصانع الغرب وحتى تنفتح لها أسواق الشرق وقس على ذلك الكثير من الأمور التي نعانيها ونعايشها في مجتمعنا المعاصر . . هذا الخطر القادم والماثل تنبهت له بعض الدول الآن – على سبيل المثال الصين – وقد بدأت الصين منذ شهور خطة للتصدي لهذا الخطر القادم وكان أن حشدت كل الأقلام وكل قنوات التليفزيون لإعادة إحياء القيم القديمة والأخلاق القويمة وطلبت من كل أجهزة الإعلام التركيز على هذا الهدف الذي أصبحت تعتبره الوسيلة الوحيدة للتصدي للخطر المطل من السماوات المفتوحة . في بكين الآن جميع المسارح تتجه إلى إحياء المسرحيات الرومانسية القديمة التي تقوم أصلاً على ترسيخ بعض القيم الأخلاقية التي عاش عليها الجيل القديم . . وفي المدارس بدأ زيادة الجرعة الثقافية التي تعتمد على قيم عاشت عليها الصين القديمة .

ونحن في العالم العربي رغم أن أصحاب النوايا الحسنة حذروا كثيراً ويحذرون الآن من السقوط في هاوية العولمة الخلقية . . إلا أن الجهد المبذول

للتصدي لهذا الخطر مازال قاصراً ودون المطلوب . . إن أصغر قرية الآن في العالم العربي ترتدي فتياتها الجينز وأصغر قرية في العالم العربي الآن يقلد أبناؤها في علاقاتهم ما يشاهدونه في الفضائيات من ممارسات أضاعت في الغرب أجيالاً وراء أجيال .

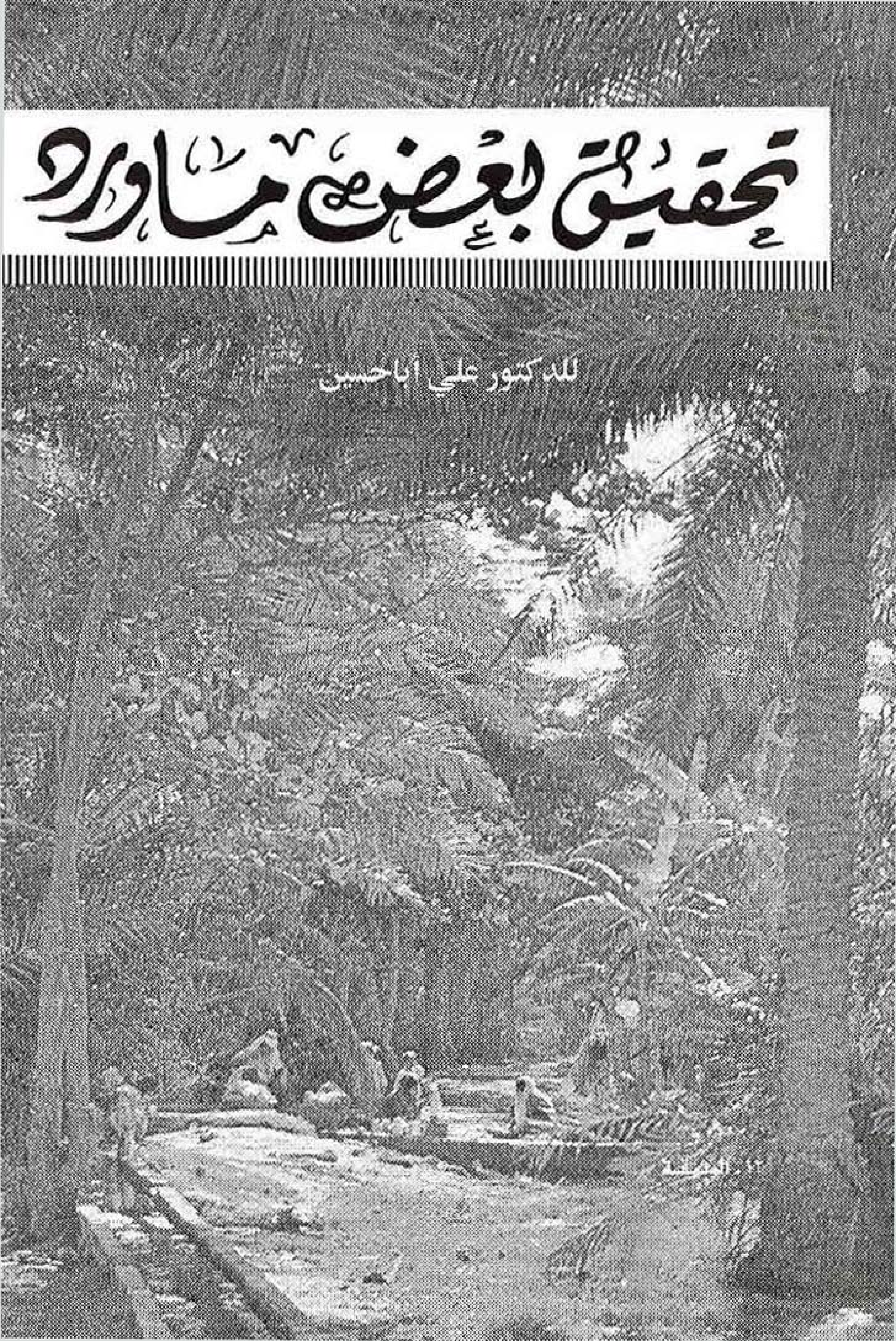
إن الكثيرين من الاقتصاديين يشيرون الآن إلى أن الشركات متعددة الجنسيات ومنها شركات إعلامية وشركات للإنتاج التليفزيوني تسيطر على ٥٤٪ منها أمريكا . . فإذا قلنا أمريكا فإن الذهن يتجه فوراً إلى رأس المال الصهيوني أما ما يريده اليهود بالعالم فليس أمراً مطروحاً هنا فهو حقيقة تكاد تكون معروفة للجميع هنا أو هناك . . إن إعادة إحياء القيم العربية أصبح ضرورة حياة ويجب في هذا الصدد ألا نقيم وزناً لما يحاول أن يروج له البعض من أن العودة إلى القديم تخلف والعودة إلى القديم عودة إلى الوراء والعودة إلى القديم بُعْد عن الأخذ بتطورات العصر كل هذه الضلالات أسلوب لصرف العالم العربي عن أصالته وأسلوب للترويج لشركات ولسياسات لا تريد للعرب خيراً ولا تريد لمستقبلهم ازدهاراً . . إن المنطق يقول أن علينا أن نأخذ بالأصلح والأنفع والأقوم سواء كان قديماً أو حديثاً . . وأن علينا أن نرى ما فيه صالحنا وصالح أبنائنا وأحفادنا سواء كان قديماً أو حديثاً فنبني على أساسه وننسج على منواله ونستعيد ما قدمه من خير لشعوب عاشت عليه سنين طويلة كانت فيه قبلة الشرق والغرب وكان أبناؤها خلالها زهرة شباب الإنسانية وأعظم رجال شهدهم وشهد لهم المجتمع الإنساني كله .

وبالله التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

تحقيق لبعض موارد

للدكتور علي أباحسين



في التحفة النبهانية

من تاريخ البحرين (١)

الحالة الطبيعية

الموقع . . والحدود :

البحرين - اسم أطلقه العرب القدماء على مجموعة البلاد الواقعة على ريف خليج البصرة الممتد منها إلى حدود عمان . وكانت قصبتها مدينة (هجر) أى الاحساء[١] ثم خص بالبلاد الواقعة على الخليج المذكور وبين الدرجتين (٢٥ و٢٩) من العرض الشمالى . وعلى هذا فيكون طرفاها قطر والكويت فيدخل في ضمنها شبه الجزيرة الكبيرة التي هي قطر مع الجزائر التي تقرب منها . ومن ثم دعوا البحرين الحالية (جزيرة البحرين) إضافة للبلاد المذكورة . ثم تنوسى الاصطلاحان واختص اسم البحرين بالجزيرة المسماة به الآن وكانت قديما تسمى (أوالاً) باسم صنم أبناء وائل لأنهم كانوا يسكنونها مع عبد القيس[٢] .

وقد نالت البحرين قديما وحديثا شهرة عظيمة لاسيما بسبب لؤلؤها المعروف بالحسن والجودة فيقصده التجار من الآفاق .

والبحرين تقع على مسافة (١٢) ميلاً من بـر ظهران[٣] . وفي الدرجة (٢٦) و(٣٠) دقيقة من العرض الشمالي، و(١٠) درجات و(٣٧) دقيقه من الطول الشرقي باعتبار المبدأ مكة المشرفة، وتدوير مساحتها مع جزيرة المحرق نحو (٨٠) ميلاً : ومساحة طول جزيرة المنامة شمالاً وجنوباً (٢٥) ميلاً وعرضها نحو تسعة أميال . وطول جزيرة المحرق نحو خمسة أميال وعرضها نحو ميلين[٤] وكلتاهما مستوية الأطراف وفي وسطهما بعض مرتفعات لاسيما أرض المنامة إلى (الرفاع)[٥] فالصخير . فجو . وتحيط بالكل أرصفة رملية ينحسر عنها الماء تماماً وقت الجزر .

(الجو)

جوها شديد الحرارة يكاد يكون محرقا زمن الصيف . فلذا يضطرون إلى مبارحة المدن زمن الصيف والنزول قرب ماء العيون العذبه التي عند سواحل البحر[٦] .

(حاصلاتها)

حاصلات البحرين اللؤلؤ[٧] . وجل شغلهم ومعاشهم هو الغوص في البحر لإخراج اللؤلؤ منه . ويبتدىء زمن إخراجه في الربيع من أول برج الثور إلى نصف برج الميزان . وقد أجمع الجوهريون على أن لؤلؤ البحرين يفوق سائر اللآلئ بهجة ونفاسة . وقد قدر ثمن ما يخرج منها سنويا من اللؤلؤ بقيمة (٣٠) ألف ألف روبية . وهذا جدول ذكرنا فيه قيمة ما يخرج من غيرها سنويا لتعرف الفرق بين الجميع .

	مليون	ألف
البحرين	٣٠	٠٠
قطر	١١	٠٠
القطيف	٠٤	٠٠
الجبيل موضع بين القطيف والكويت	٠٠	٦٠٠
الكويت	٠٨	٠٠
عمان جميعه	١٥	٠٠
بلدة لنجه	٠١	٦٠٠
جزيرة قيس	٠٠	٤٠٠
الجميع سبعون مليوناً	٧٠	٠٠

وهذا التقدير بالحالة الوسطى وقد يزيد وينقص حسب الاطوار : وقد أحس بعض العارفين بوقوع تناقص في اللؤلؤ وعلل ذلك بإرسال الصدف بعد فلقه إلى أوربا . لأنه قد يلاصق الصدفة الواحدة مائة من صغارها . فإذا ألقيت الصدفة بعد فلقها في البحر نمت الصغار وعاشت وانفصلت . وبالعكس ينتج قلة المحصول . لأنهم إذا نقلوا الكبار وأماتوا الصغار فمن أين يحصل النتاج . (ويوجد) في أماكن مغاصات اللؤلؤ (شجر اليسر الأسود) ولكن لم يكن لهم به اعتناء . على أنهم لو بذلوا هممهم في إخراجه وتسفيره إلى الحجاز (لتصنع منه السبح) لزادت محصولاتهم واتسعت معيشتهم .

فصل في صفة الغوص للؤلؤ

أوردت صفة الغوص وإن كانت معلومة . لأني اطلعت على رحلة ابن بطوطة فرأيته وصف مغاص الجواهر بخلاف ما هو مشاهد اليوم (والكمال لله) .

(تنبيه)

ذكرنا الأسماء بحسب ما اصطلح عليها أرباب الصناعة منهم . فنقول أن سفنهم اليوم نوعان (**سنبوق، وجالبوت**) وكان في السابق لهم سفن متنوعة يسمونها (**بغله، بتيل، بوم، بقاره**) وهذه قل استعمالها اليوم . واكتفوا بالنوعين المذكورين . ويعبرون عن مجموع السفن (**بالخشب**) وعددها يتراوح بين ٣ و٤ آلاف سفينة . ويعبرون عن ابتداء الغوص (**بالركبه**) وعن الانتهاء (**بالقفال**) ويسمون اللؤلؤ (**قماشا**) والجواهر (**دانات**) فإذا مضى برج من فصل الربيع يخرجون في سفنهم إلى البحر كل سفينة بحسب ما تسع من الغائصين تحت رياسة (**النوخذة**) ويسمون الغائص (**غيصا**) والذي يجر حبال الغائص (**سيبا**) والمساعد لهما (**رظيفا**) والذي يكون أصغر من الرظيف يسمى (**تبابا**) وتخرج جميع السفن إلى البحر في مواضع مختلفة العمق ولها أسماء معروفة بينهم بعدها عن البر نحـــو (٣٠) ميلا وعمق المغاصات يتراوح بين (٣ الى ١٤) باعا . وأما مغاصات بحر عمان فيبلغ عمقها نحو ٢٠ باعاً . ولكن الغائصين بها قليلون لمشقة عمق البحر :

(**وأما هيئة الغوص**) فهو أن الشخص ينزل من السفينة فيقف على وجه البحر طافيا على الماء إلى أن يجعل في أنفه شيئاً مثل الملقاط يسمونه (**فطاما**) وهو مصنوع من قرون الوعل أو من (**الذبل**) أي عظم السلحفاة ليمنع التنفس مادام غائصا فإذا خرج من البحر جذبه من أنفه بسرعة وتنفس . وعند نزوله إلى قعر البحر يجعل في إحدى رجليه رصاصة أو حجراً وزنه من (١٢ إلى ١٤) رطلا حسب مطلوب الغائص لتسرع به في النزول إلى قعر البحر فإذا وصل نزعها من رجله فيسحبها (**السيب**) الذى في السفينة لأن بها حبلا متصلا بالسفينة يسمى (**زيبلا**) وتعلق الرصاصة بطرف السفينة في المقداف . ويصحب الغائص معه زنبيلا معمولا من حبال الكنبار مشبكا على صفة الغربال إلا أن خروقه واسعة جدا يسمونه (**ديينا**) وبه عروة يجعلها الغائص في عنقه تسمى (**علقة**) ومربوط بها حبل يسمى (**جداء**) متصلاً ذلك الحبل بالسفينة فيصير مجموع الحبلين في يد السيب ويجعل الغائص في الغالب في أصابع يده جلدا يسمى (**خبطا**) فيقتلع من الأرض الصدف فيجعله في (**الديين**) ويمشى على يديه في قعر البحر ورجلاه مرفوعتان إلى العلو بطبيعة الماء . وحبل الديين بين إبهامى رجله فإذا امتلأ الديين صدفاً أو تضايق

نفس الغائص جذب الحبل برجله بقوة فيسحبه السيب وهو ماسك في حبل الديين، وإذا جذب الغائص الحبل برجله وهو في البحر قالوا (نبر) فإذا ارتفع على وجه الماء أخرج الفطام من أنفه وتنفس بمقدار ما يأخذ السيب الديين ويفرغه في وسط السفينة ثم يعطيه إياه فيمسكه الغائص بإحدى رجليه ويجعل في الأخرى حلقة الرصاصة ويجعل الفطام في أنفه ويضع كفيه على وجهه ويفك يده من السفينة فتسير به الرصاصة إلى قعر البحر . ويستقيم الغائص تحت الماء إلى نحو عشر دقائق وما قيل من أنه يستقيم نحو ساعة فلا صحة له : ويسمون المرة الواحدة من النزول إلى البحر والصعود منه (تبة) وأيضا إذا وصل الغائص قعر البحر فتح عينيه ليلتقط الصدف ويعرف ربعه ويتكلمون مع بعضهم في الماء (بالمغمغة) وما قيل من أنهم يجعلون على وجوههم وقاية سوى ما ذكرناه من الفطام في الأنف فغير صحيح .

ولا يزالون يغوصون إلى أن يكتفوا أو تغرب الشمس فإذا اكتفوا قبل الغروب شرعوا يفلقون الصدف ويسمونه محاراً[٨] ويخرجون ما يجدونه في الصدف من اللؤلؤ إلى الغروب ثم يستريحون، فإذا أصبحوا فلقوا الباقي من الصدف . وبعد الفراغ يشرعون في الغوص . وهكذا إلى أن يخلص زادهم أو ماؤهم فيأتون البلد ويتزودون منها بمقدار ما يكفيهم نحو شهر . وهكذا إلى أن ينتهي زمن الصيف فيرجعون كلهم في يوم واحد يعينه لهم الحاكم ومن تأخر يعاقب : فإن أصابهم في مدة الغوص ريح عاصف قلعوا من أماكن الغوص وتقربوا إلى البر بين الشعاب في مواضع يسمونها (الفشت) إلى أن يهدأ الريح ثم يعودون لمحل غوصهم ويسمونه (هيرا) .

ويجعلون جميع ما يتحصلون عليه من اللؤلؤ عند النوخذة وهو يتولى بيعه ويأخذ من جميعه الخمس، ثم يقسم الباقي عليهم بعد أن يخرج منه قيمة ما أكلوه من الطعام زمن الغوص . فيعطى الغايص (٦٠) في المائة . والسيب (٤٠) في المائـة . والرظيف (٢٠) في المائة . أى أن كل رظيفين يعد عن سيب واحد . وأما التباب فليس له شئ سوى فائدة التمرين على الغوص وما أكله في بطنه فقط .

(تتمة للغوص)

وهو أن أهل البحرين إذا أقبل فصل الربيع يظهرون صغارهم إلى ساحل البحر في

عمق ذراع فأكثر ليستلقطوا ما يجدونه من الصدف في كل يوم ويسمون هذه الهيئة (المجنى) فإن أبحروا وغابوا عن أهلهم بالسفن نحو يومين يسمونها (العزاب) لعزوبهم عن البلدة أى بعدهم عنها . فإن استعدوا بسفنهم وأبحروا بها على صفة الغوص وغابوا نحو أسبوعين يسمونها (خانجيه) .

فاذا مضى شطر من برج الثور تهيأوا للغوص العام وخرجوا في اليوم الذى يعينه لهم الحاكم .

فإن أحب أحد من يجعل ما يخرجه من الصدف على حدة ثم يبيعه بنفسه ويعطى من ثمنه الخمس للنوخذة وقيمة الزاد الذى أكله فيسمونه (عزالا) فإذا دخل برج الميزان ينتهى الغوص العام فيأتون جميعا إلى البلدة ويبيع النوخذة ما عندهم من اللؤلؤ ويتحاسبون مع (الجزوي) أي مع أهل هيأة الغائصين . ثم يوجد منهم بعض أفراد يرجعون إلى الغوص مرة ثانية اختياريا ويكابدون مشقة البرد نحو شهر فيسمونهم (رداده) . ويوجد أيضا بعض أفراد من تجار العرب يخرجون بسفنهم إلى أماكن الغوص فيشترون من النواخذة بعض الجواهر بالنقود وربما أعطوهم بدل القيمة تمرا أو رزا وهو أحسن للنوخذة من مشقة الذهاب إلى البلدة للتزود منها فيضيع عليه الوقت نحو أسبوع فهؤلاء التجار يقال لهم (طواويش) وهم يجمعون اللؤلؤ ويبوبونه ثم يبيعونه على بعضهم بعضا فينحصر في أفراد قليلين فيسافرون به إلى الهند ليبيعونه هناك . ويوجد أيضا قسم من (الطواويش) على سواحل البلدة يستقبلون كل سفينة تقدم إلى البلدة للتزود فيشترون منها ما يريدون ثم يبيعونه في البلدة على بعض الأوربيين أو على البونيان الآتين إلى البحرين خصيصا لشراء اللؤلؤ .

فصل ومن جوائح البحر على أهل الغوص غير السمك الحيوان المسمى عندهم (بالدول)

(والدول) هو حيوان هلامى لا يهتدى في سيره لجهة معينة وإنما تقذفه الأمواج وهو طاف على وجهها . وحجم معظمه قدر الكف كروى الشكل في الجملة وله خيوط طوال نحو ذراع فأطول فكأنه كتلة حرير أبيض. فإذا لامس جزء من هذا الحيوان جسم بنى آدم أحرقه حرقاً مبرحاً . وربما أعاب العضو الذى لامسه .

فلو رفع هذا الحيوان بنحو عصاة من البحر وأصابته حرارة الشمس مقدار خمس دقائق لذاب وتحلل ماءً . وهو من عجائب المخلوقات . فاذا وجد في البحر في بعض السنين يضطر الغائصون إلى لبس (الغلائل) الثياب الضيقة أثناء الغوص اتقاءً لشره .

ويوجد أيضا حيوان آخر يسمونه (اللويثي) بالتصغير وهو مثل (الدول) هلامي لكنه أحمر اللون وضرره أخف من الأول فإذا لامس الجسم أحرقه بدون تبريح ويورم اللحم كأثر ضرب السياط. ويبقى أثره وألمه نحو ساعتين . فإذا سخن الجسم الملدوغ على النار زال ألمه .

ولقد سلط الله على النوعين (الدول واللويثي) حيوانين يأكلانهما . يقال لأحدهما (فغلول) وهو حيوان مثلهما في الخلق ولكن ليس له خيوط وإنما له أصابع غلاظ مجتمعة في وسطه أشبه شئ بأصابع كف الإنسان حجماً وطولاً وفي وسط الكف فمه . وهو مدور الشكل وقطره نحو شبر :

والحيوان الآخر يسمى (قليان) وهو حيوان مستطيل الشكل مثل القلم وطوله نحو شبر :

وفي المثل المغربي (لكل آفة آفه . حتى الرمل خلق الله له السوافه) والسوافة اسم قبيلة في بادية المغرب أرضهم رملية ولهم صبر وجلادة على مكافحة الرمل المتهايل على بساتينهم من شدة الذارى .

أما (الصدف)[٩] فمعروف، لا يحتاج إلى وصف . وإنما نريد أن نبحث عن ماهيته فنقول أنه ينبت في أرض البحر الصلبة وله عروق خضر مائلة إلى الزرقة ثابتة بها . ثم يتخلق في بطنه حيوان له أمعاء يأكل ما والاه من الطين أو ما فيه من صغار الحيوانات (المجهرية) ثم يتخلق في خلال لحمه اللؤلؤ فإن كان متوسطا في اللحم كان اللؤلؤ حسنا وإن لامس أو قارب الصدفة صار رديئاً. فيصير في أول الأمر نباتاً . ثم حيواناً. ثم معدناً جوهرياً . وهو يثمر مرة واحدة في السنة . فلو تركت الصدفة ولم تقلع مات وسوس لؤلؤها مثل ثمرة الموز إذا نضج ولم يجن خرب .

وما قيل من أن الصدف يصعد على وجه البحر في شهر نيسان فيلتقم المطر ثم يرسب في البحر فليس له صحة. وإن نقله المؤرخون وتمثلت به الشعراء . فإنهم نقلوه من

أفواه من لا خبرة لهم بحقيقة الغوص واللؤلؤ .

وقد درست أحوال الصدف زمناً طويلا فوجدته تلقيه الصدفة الكبيرة على وجه قعر البحر مثل صغار (حب الخشخاش) كأنه بيض نمل في فصل الخريف . ويظهر وجوده في الشتاء، وذلك إذا امتاز قعر البحر بالصغار فتراه كأنه خضخاض أصفر . ثم ينمو شيئا فشيأ حتى يصير حجمه قدر حب العدس فيرسب حينئذ في الأرض رسوبا بينا ويجتمع حفناً حفناً فتنبت له عروق خضر مائلة الى الزراق فيها بريق تضرب في الأرض الصلبة والذى ماثبتت عروقه يظل يتدحرج بحركة البحر ويتفرق عن بعضه إلى أن يجد أرضا صلبة . أو أحجاراً بحرية . أو فيما والاه من أشجار البحر . أو في كبار الصدف . فيثبت وينمو وتنزل الروح فيه فيتكون في جوف الصدفة حيوان يسمى (محاراً) كتكون الفروج في جوف البيضة فاذا تمت خلقة المحار وتمكنت عروقه من الثبات في الأرض انفلق عن صدفتين وجعلت تتغذي بما والاها من الطين أو مافيه من صغار الحيوانات (حسب عادة الله المطردة في خلقه من أن كل ذي روح لابد له من قوت يقتاته) ولها أمعاء كأمعاء السمك وإذا سمعت صوتا أو حركة طبقت صدفتيها عليها . فهي أشبه شيء بالجراد في كثرة إلقاء بيضها . وقد رأيت ما ذكرته بعيني من حين كونه بيضاً إلى أن بلغ مقداره المعتاد . ولقد استلقطته بيدي من قعر البحر لاختبر قوة عروقه فوجدتها بمقدار مايحمل بها وزن ستة أرطال فاكثر.

وعروقها في غلظ الشعر وطول الانملة. فهذا هو التحقيق ولا عبرة بما نقله بعض المؤرخين : فإنهم قد قالوا أيضا أن الأرض على قرن ثور وذلك الثور على ظهر سمكة : وأيضاً فإنهم بالغوا في وصف عوج بن عنق . وغير ذلك من خرافات العوام أو من أكاذيب الإسرائيليين.

نعم إن قيل أن الماء العذب يحسن اللؤلؤ فهذا مسلم لأن لؤلؤ البحرين لم يفق حسنا على سواه إلا بكثرة الينابيع التي في وسط البحر كما سيأتي . ومن أجل ذا صار حسنا فلو كان سبب الحسن هو المطر فقط لكان لؤلؤ (جزيرة سيلان) أحسن الجواهر وأكبرها لكثرة الأمطار فيها . والحال أن لؤلؤ سيلان وإن كان أبيض حسنا فهو سريع التغير . بخلاف لؤلؤ العرب فإنه عربى الأصل وما أوتيت من العلم إلا قليلاً والله أعلم بالصواب .

عيونها (١٠)

عيونها : جزيرة البحرين كثيرة المياه العذبة ولكثرة ينابيعها البحرية وعيونها البرية كانت في غاية الخصوبة سوى أن فلاحتها غير متقنة ويوجد في وسط البحر جملة ينابيع عذبة تغور بقوة . فيغوص عليها المستقون فيملؤون منها القرب للسفن ولشرب غالب أهل البلدة وأن من الواقعة على ساحل البحر لما يتدفق ماؤها ويسيل على وجه الأرض . ومنها ما إذا جزر البحر ظهرت فاستقوا منها . وإذا مد البحر علاها بنحو ستة أذرع فيغوصون عليها للاستقاء .

والينابيع البحرية هي ألطف مياههم لصيانتها عن الأوساخ التي تقذفها الرياح في العيون غالبا . وأيضا ليس بها دود ولا طيسيّ (مكروب) وذلك لعدم مكثه بسرعة فورانه وتدفقه .

وعدد الينابيع البحرية المشهورة عندهم بأسماء مخصوصة نحو (٢٥) ينبوعا غير الصغار والمجهولة الاسم ويبعد بعضها عن البر بنحو (٢٥) ميلا فأبعد ويعلوها البحر بنحو خمسة أبواع فأكثر وعدد التي في البحر نحو (٢٠٠) عين وذلك غير الصغار . وغالبها يسيح على وجه الأرض ثم يفيض في البحر . وفي زمن الصيف ينزل غالب الأهالي والحكام على سواحل البحر قرب هذه الأعين الجارية بين النخيل والبساتين. ولكل أناس جهة مخصوصة باسم مختص بها . وارتحالهم إليها من أواسط الربيع إلى أوائل الخريف، ويتخذون هناك بيوتا من جريد النخل موقتة (وبسبب كثرة هذه الينابيع والعيون صار لؤلؤ البحرين في غاية الحسن كما قدمنا).

وأن عيون البحرين وينابيعها الموجودة اليوم تزيد على معدل (حالة أرضها الطبيعية) بكثير مع أن قسما من عيونها العظيمة قد سدت بالصخور العظام . ويقال أن الذي أمر بذلك هو أحد عمال عبد الملك بن مروان الأموى بسبب تمرد أهل البحرين عليه لتوفر مصالحهم وريع أراضيهم . فأمر بردم معظم العيون الكائنة في الجهة الغربية مثل عين (سيجور) وخلافها . وقصة ردم هذه العيون مشهورة عند أهل البلدة . ولكنى لم أقف لها على ذكر في التواريخ . والذى يظهر لي والله أعلم أن ردمها لم يكن لتمرد الأهالى على العامل حيث أنه يمكنه أن يؤدبهم بغير ذلك . ولأن ردمها لم يخل بمصالح

البلدة عموما حتى يقال أنه أراد الانتقام من الكل .

وإنما لما كانت الجهة الغربية منخفضة وقليلة الزراعة والبساتين والسكان أمر بردمها مصلحة للأهالي ليرجع نبع مائها إلى العيون الأخرى (وهذا هو الأقرب للرأي السديد) وتعد الينابيع البحرية من عجائب القدرة وفي الحقيقة أن البحرين أكثر البقاع مياها مع أنها جزيرة(١١) .

جزائرها(١٢)

يوجد غربي البديع على مسافة نصف ساعة في السفن جزيرة تسمى جداى أو (جده) بالكسر والمد وهي صغيرة خالية من الماء والعشب وليس بها أحد وإنما بها صخور وجبال ينحت منها عند اللزوم .

وعلى مسافة ساعة من البديع أيضا جزيرة أخرى تسمى نعساناً (أم نعسان) وهي أكبر من الأولى . وبها من أنواع الصيد (الظبي والأرانب والحبارى) . وفيها معدن الجص . وبها عين ماء كبيرة في السهل . وأخرى منحدرة من سفح جبل هناك تسمى (القطارة) ويسكن هذه الجزيرة أفراد من الجصاصين.

وتذهب إليها الحكام والأمراء زمن الخريف للقنص فيها بالطيور وبالكلاب السلوقية .

(الجبال)(١٣)

ويوجد في وسط جزيرة المنامة على مسافة نصف ساعة للراكب من الصخير جهة الجنوب جبل عظيم مستطيل يسمى (جبل الدخان) ارتفاعه نحو (٤٠٠) قدم. وقد ذهبت إليه في ٢٢ جماد الأولى عام (١٣٣٢) . وفي الثلث الأعلى منه غار عجيب النحت كأنه حجرتان واحدة في داخل الأخرى وهو متسع وعرضه نحو (٨) أذرع وطوله نحو (٢٥) ذراعاً وارتفاع سقفه نحو (٨) أذرع . وقد دخلته بنفسي صحبة ولي العهد سمو الشيخ حمد ابن ذى العظمة سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ومعنا الشيخ عبدالله بن سعد بن شملان وجملة من حاشية الحاكم. وفي ذلك الوقت صدر الأمر من سمو الحاكم

الشيخ عيسى بتنظيف هذا الغار وإزالة التراب والأوساخ المتراكمة مع مرور الدهـــور وتوالي السنين .

ووصفه هو أن سقف الحجرة الأولى منحوت قبة واحدة مطوقة وبابها مقابل جهة الشمال . وفي وسط الحجرة من الجهة الغربية باب في عرض ذراعين وارتفاع قامة يفضي إلى الحجرة الداخلية . وهذه الحجرة الثانية سقفها مشكل من قبتين مطوقتين متلاصقتين. وفي أعلى الجبل من جهة الغرب موضع برج قديم متهدم يظن أنه بني قبل ظهور الإسلام . ولم يبق منه اليوم سوى أساسه المحكم البناء ووصلته أيضا في ذلك اليوم صحبة صاحب العظمة سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة .

هواؤها

هواء جزيرة المحرق جاف نقي معتدل في الجملة لم يوجد بأرضها وخامة ولم يكن بها وباء لقلة النخيل بها ولأن شرب أهلها من ينابيع البحر . وأما هواء جزيرة المنامة فرديئ رطب فيه بعض الوخامة . وأما هواء القسم الجنوبي منها من **(الرفاع)** فصاعدا فهو نقي تام الصحة.

الحالة الاقتصادية

(الزراعة والنباتات) جزيرة البحرين هي كثيرة النخل والأشجار والثمار وأجود رطبها **(الخلاص)** وأحسن تمرها **(المرزبان)**[١٤] . وكان بها نحو (٨٠٠) نوع من التمر . وكان يضرب بها المثل في كثرة الرطب والتمر فيقال (كناقل التمر إلى أوال)[١٥] وبها الرمان والتين الأبيض والموز والأترج بكثرة مفرطة . والخوخ . والمشمش والكمثرى والنبق ويسمونه **(كنارا)** ويقولون (إذا طاح الكنار تساوى الليل والنهار) وهو كذلك لأن إبانه أول برجي الاعتدالين **(الحمل والميزان)** وبها الحمرُ ويسمونه **(صُبارا)** وبها الليمون بنوعيه والنارنج والتوت والانباء والمخيط ويسمونه (بمبرا) وهو يكبر بمقدار الليمون . وبها القثاء ويسمونه **(طرحا)** وبها ثمرة يسمونها **(لوزا)** وبالفارسية جلغوزه وعربت قديما **(بجلوز)** فحرفوها وقالوا (لوزا) وهي ثمرة تشبه اللوز في الوضع وقدر الكمثرى في الحجم وهي نوعان أبيض وأحمر وأجودها الأبيض. وفي وسط كل منهما نواة مغشاة بعروق أشبه شئ بالأنبا . وإذا

كسرت تلك النواة وجد فيها لب اشبه شئ بالفستق لونا وطعما وحجما .

والمأكول من هذه الثمرة ظاهرها فقط وهو قليل الحلاوة مائل إلى الحموضة نوعا ما . وفيه نوع عفوصية فيظهر أن طبعه بارد يابس . وإذا أكل تقاطر من الشدقين ماء خمرى اللون . وهو لطيف مهضم للطعام وهو كثير جدا بها . وبها من الأزهار الفل ويسمونه (رازقيا) والياسمين والآس والريحان وهو الأكثر ويسمونه (مشموما) ونساؤهم مغرمات بالتزين به تعليقاً على رؤوسهن بكثرة مفرطة . ويوجد بها من المخضرات الباذنجان بنوعيه الأسود والأحمر والبامية والرجله والفجل والكراث، وللبهائم البرسيم .

يوجد في البحرين أصائل الخيل وأشهرها الفرس المسماة (المصنة) وهي من بعض خيل الشيخ حمد بن عيسى ولها شهرة طائرة في السبق والنجابة[١٦] .

وبها أيضا نجائل الإبل (العمانية) وحسان الأتن . وغالب ركوب الأهالي على الأتن البيض . ويعلفونها صغار السمك مع التمر . وقد انتج ذلك ضخامة جسمها ضخامة حسنة . حتى أنهم ليفضلون ركوبها على ركوب الخيل .. ويوجد بها أيضا البقر والضأن، والمعز . ومن الصيد الظباء والأرانب والحبارى .

وقد جلب إلى البحرين سمو الشيخ حـمد بن عيسى آل خـليفة (الطاووس) سنة (١٣١٨هـ).

ولأهل البحرين وبالأخص حكامها ولع شديد في القنص بالطيور الحرة . والكلاب السلوقية . فإنهم يعتنون في تربيتهما وتعليمهما غاية الاعتناء، وغالب رغبة الحكام والأمراء في اقتناء الطيور (الحرة) وهي التي تألف البراري غالبا (الصقر) .

وأما التي تألف السواحل فيسمونها (شواهين) وهي أصغر حجما من الصقر الحر . وأرخص ثمنا منه . ولكنها تمتاز عن الحر بسرعة السير في بادئ الطيران . ويمتاز الحر عنها بكثرة صيده حيث أن الحر ربما يصيد في اليوم الواحد عشر حبارات . وله منظر حسن وهيبة ظاهرة . ويعيش (الحر) نحو ١٢ سنة بقوته المعتادة وكان عند الحكام الحاليين طير مكث عندهم (١٨) سنه ولكن ضعف بصره من الكبر ويقال أنه يعيش إلى ٢٠ سنة .

وأغلب الطيور الحرة تجلب إلى البحرين من أرض فارس غشيمة فيعلمونها ويخصصون لكل طير اسما من أسماء مشاهير العرب القدماء أو الحاليين كقيس وهذال

وطلال ونحوهم ومتى أطلق الطير ثم دعي باسمه المخصوص له عاد ولو كان طائرا في إثر صيد له فإنه يترك الصيد ولو كان جشعاً ويعود لصاحبه ويعلمون الطيور المذكورة بنوعيها صيد الحبارى فقط .

وأما صيد الظباء والأرانب بها فليس بمحمود عندهم . وموسم الصيد والتنزه بالطيور زمن الخريف فإنهم يذهبون بها إلى براريهم وإلى سواحل الاحساء . وربما سافر كبار أنجال الحكام مع جملة من حواشيهم إلى (لنجه) من أرض فارس فيقنصون في براريها نحو شهر . ويصرفون مبالغ طائلة على ذلك ثم يعودون إلى أوطانهم ويجمعون الطيور الحرة فقط عند أناس مخصوصين يبارونها إلى الموسم الآخر . وترد إلى البحرين في كل سنة نحو (٢٠٠) طير من النوعين الصقور والشواهين .

وكذلك فإنهم يعلمون الكلاب السلوقية على صيد الظباء والأرانب وربما دربوا الطير على مؤالفة الكلاب ليتساعدا على الصيد وأن الكلاب لتعدو عدوا جيدا حتى إني رأيت كلبة عند الشيخ حمد تعدو مع الخيل يوم الرهان وإنها لتتقدم عند الحلبة أمام جياد الخيل[١٧] .

تواريخ بعض الوقعات والأحداث بحساب الجُمل الواردة في كتاب (التحفة النبهانية) الطبعة الثانية

العنوان	عام	تاريخه	الصفحة
عزل (قزاغ سلطان) عن البحرين	١١١٣هـ	(قد زاغا)	١٠٨
بناء قلعة مريرفي الزبارة . بناها الشيخ محمد بن خليفة الأول	١١٨٠هـ	(تمت بعز وعون الله حاميها	١٢١
حكم الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة للبحرين (أحمد الفاتح)	١١٩٧هـ	(أحمد صار في أوال خليفة)	١٢٦
بنى الشيخ سلمان بن أحمد قلعة عظيمة في الرفاع وكتب عليها تاريخها	١٢٢٧هـ	(خيم السعد بقصرك) (جاء خير بقصرك)	١٤٠ و ١٤١
وقعة (قزقز) بين المسقطيين والخليفيين وانتصر الخليفيون	١٢٤٤هـ ١٨٢٨م ١٨٢٩م	(بالله سعيد غلب)	١٤٩
(وقعة المحرق) أو (وقعة الساية) بين آل عبد الله والشيخ محمد بن خليفة	١٢٥٨هـ	(بوقعة البحرين ذاب مال) أو (شر نحر شر)	١٦٣
(وقعة الدولاب) بين آل عبد الله وآل سلمان	١٢٧٠هـ	خرعت	١٦٦
الصلح بين آل عبد الله وآل سلمان بوساطة أمير نجد فيصل بن تركي	١٢٨٠هـ	فرغ	١٧٩
استتب الحكم للشيخ علي بن خليفة بالبحرين	١٢٨٥هـ	غرفه	١٨٧

العنوان	عام	تاريخه	الصفحة
(وقعة الضلع) بين محمد بن خليفة ومعه ناصر بن مبارك من آل عبد الله	٢١ جمادى الثانية ١٢٨٦هـ ٣٠ اغسطس ١٨٦٩م	وي لأوال خربت	١٩٠
عود الشيخ محمد بن خليفة إلى الحكم وغدر آل عبد الله به ومقتل الشيخ علي بن خليفة	١٢٨٦هـ	علي غيب ومحمد سيب	١٩٥
تاريخ بناء قصر الحاكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة	١٣٠٩هـ	هنيت بالبيت يا در العلى حمد	٢٣٦
(وقعة ربيجة) في قطر بين النعيم والشيخ قاسم آل ثاني	١٢٨٧هـ	غدروها ليلاً	٢٤٠
قصر بناه الشيخ خليفة بن سلمان حفيد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة	١٣٣٣هـ	خليفة نال العلا	٦٤
بنى الشيخ راشد بن عيسى بن علي آل خليفة قصراً له حذاء قصر والده	١٣٤٠هـ	جمع الجد والشرف الأثيل	٦٦
الشيخ خليفة بن سلمان حفيد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة جدد بناء قصره	١٣٣٩هـ	عمرت فيه بلا نقص ولا كدر	٢٣٧

و(بحر بلاد الكلدانيين) .

و(نهر بيت يقين الي) .

ب – **أما الفرس** : نظراً لاحتلالهم للأراضي المطلة على الخليج العربي خلال فترات الاحتلال الأخميني ٥٣٩ – ٣٢٢ ق.م . والفرثية ١٤٧ ق.م – ٢٢٤م . والساسانية ٢٢٤ – ٦٣٥م .

فقد سمي (الخليج العربي) باسم (سانيوس أرابيكوس) أو سابنوس بيروسيكوس . وهذه تسمية خاطئة لأن الفرس لم يحتلوا الخليج بل تشرف بلادهم على الساحل الشرقي منه فقط .

جـ – **وفي العصور العربية الإسلامية** : سمي (الخليج العربي) بخليج البصرة . وبأجزاء منه (خليج القطيف) و(خليج عمان) .

وأطلق على الخليج العربي جغرافي فارسي مجهول الإسم في مخطوطته الموسومة (حدود العالم من القرن الرابع الهجري) اسم (خليج العراق) .

د – **اليونان والرومان** . أنظر : د. الأحمد سامي سعيد . تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي، ١٩٨٥م، ص٩ – ١٠ .

٢ – قال في معجم البلدان (أوال) بالضم ويروي بالفتح جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين فيها نخل كثير وليمون وعنب وبساتين .

عبد القيس من العرب المستعربة من ربيعة . وقد نزحت للبحرين من تهامة وتغلبت على من فيهامن أياد والأزد . أنظر : د. عبد الرحمن النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، طبع بغداد ١٩٧٣م، ص٤١ ؛ ومحمود بهجت سنان، البحرين درة الخليج، ط ١، طبع بغداد ١٩٦٣م ص٨ . عن حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، جـ ١ .

أما البحرين في العصر الإسلامي المبكر فكانت تضم إقليماً واسعاً ضمن (العروض) إذ قسم قدامى الجغرافيين بلاد العرب إلى خمسة أقسام وهي : (اليمن وتهامة والحجاز ونجد والعروض)، فأما العروض فكان يشمل : (اليمامة والبحرين وما والاها) فأما البحرين في صدر الإسلام فقد ظلت تشمل الإسم الجامع لبلاد تقع على الساحل الغربي للخليج العربي ويمتد من كاظمة في الكويت شمالاً إلى جلفار (رأس الخيمة) جنوباً . وان أطلق العوتبي وهو مؤرخ عماني عاش في القرن الثاني عشر أن (البينونة) الواقعة غرب أبوظبي هي الفاصلة بين البحرين وعمان في الفترة من التاريخ . بينما جعل ياقوت حد البحرين من الشمال (العذيب) ومن الجنوب (عمان) وتتصل البحرين باليمامة من شرقها وبعمان من جنوبها ومن الغرب اليمامة ومن الشرق الخليج العربي وإقليم (كرمان) واعتبر البعض (جلفار) من إقليم العروض التي منها البحرين . ووصف الجغرافيون العرب القدامى الطريق الساحلي الذي يصل بين البصرة وعمان وقدروا طوله شهراً

للمسافر عليه . لذا فضل العرب ركوب البحر وسلوك الطريق البحري لسهولة طرقه وسلامة أمنه بالنسبة للطريق البري وكانت (هجر) قاعدة البحرين أو عاصمتها . ويقال أنها كانت اسم قصبتها . وقال بعضهم أن مدينة (الاحساء) تسمى أيضاً (هجر) وهي قاعدة لتلك البلاد التي تسمى أيضاً بـ (البحرين) . كما أن (شبه جزيرة قطر) كانت تقع في إقليم البحرين وقد وصفها الأزهري : بأنها قرية في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير . وتشمل البحرين في صدر الإسلام (الكويت والاحساء والقطيف وقطر وجزر البحرين) بما فيها جزيرة البحرين الأم والتي كان يطلق عليها اسم (أوال) منذ القرن الثالث الميلادي . وقد استمر اسم (البحرين) يطلق على هذا الإقليم مع الاحتفاظ بتسمية (أوال) على أكبر جزيرة في البحرين وكثيراً ما كان والي البحرين يضم إليه ولاية الأهواز وعمان كما حدث في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ولما ولي بنو العباس صيروا عمان والبحرين عملاً واحداً . وفي عهد الرشيد الخليفة العباسي الخامس المتوفي ١٩٣ هـ/٨٠٨م ولى أحد كبار قادته وهو (المعلى) على إقليم واسع في الخليج العربي ومنه (البحرين) و (الغوص) ثم جمعت هذه الأعمال إلى (محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) ثم إلى (عمارة بن حمزة) ثم إلى غيره . وتعني ولاية الغوص أن والي البحرين أصبحت له الولاية على جميع المياه والجزر والقشوت والهيرات الواقعة من كاظمة إلى جلفار . فالبحرين بهذا المفهوم الجغرافي تقع على خط طول ٧٤ درجة و٢٠ دقيقة من المغرب وخط عرض ٢٤ درجة و٤٥ دقيقة على ما ذكره صاحب الزيج . واعتبر البعض مبدأ خطوط الطول من مكة المكرمة فتصبح البحرين واقعة على خط طول ١٠ درجات و٣٧ دقيقة وعلى خط عرض ٢٦ درجة و٣٠ دقيقة . وحدد النبهاني موقع البحرين بين خطي العرض ٢٦ درجة إلى ٢٩ درجة شمال خط الاستواء . وقال ابن الفقيه : والبحرين هي (الخط) والخط : اسم جامع لسيف البحرين إلى عمان . ومن قرى الخط القطيف والاحساء والعقير وقطر . واستطرد ابن الفقيه فقال : ان البحرين هي (الخط والقطيف ولاره وهجر وبينونه والزاره وجواثا والسابور ودارين والغابة) . وقال : وقصبة هجر الصفا والمشقر ومن قرى البحرين الأخرى غير ما ذكر . وقال البكري وياقوت وابن منظور : إن قطر موقع بالبحرين وكان العرب يضمون إلى هذا الخط بقية مدن هجر الداخلية وجزائر الخليج العربي ومنها (أوال) ويطلقون على الجميع اسم (البحرين) ويعتبرونها منطقة مستقلة من مناطق الجزيرة العربية الخمس وهي (الحجاز ونجد واليمن وعمان ثم البحرين) .

وأن شهرة (البحرين) بالتجارة والغوص وصناعة السفن جعلتها تحتل مركزاً تجارياً هاماً جذب التجار والطامحين في الثراء الذي عرفت به البحرين فأصبح يطلق على المنطقة كلها (البحرين) من قبيل إطلاق الجزء على الكل . وظل ذلك الإقليم الواسع يطلق على (البحرين) في فجر الإسلام حتى عهد دولة (الجبور) في البحرين . فلما قتل (مقرن بن أجود بن زامل الجبري)

٩٢٨هـ/ ١٥٢١م سيطر البرتغاليون على جزيرة البحرين إلا أن دولة الجبور استمرت في الاحساء والقطيف وأن حدودها امتدت من القرين إلى شمالي عمان وأصبحت دولة الجبور تسمى بدولة (آل حميد أو آل عريعر) ويسكنها (بنو خالد) ولم تذكر المصادر والخرائط البرتغالية (أوال) منذ القرن السادس عشر الميلادي بل ذكرت البحرين الذي أطلقته على جزر البحرين وكتبت بالبرتغالية اسم (بحاريم) أو (باريم) وأطلقتها على جزر البحرين . وهنا نلاحظ في هذه الفترة زالت كلمة (أوال) تقريباً والتي كانت تطلق على أكبر جزر البحرين . كما أنه أصبحت البحرين تعني الجزيرة الأم وما حولها وترسم الخرائط القديمة خطاً متقطعاً أحياناً بقرب الساحل الغربي للخليج العربي يمتد من شمال جزر البحرين إلى جنوبيها ويكتب في داخله (مصائد اللؤلؤ في البحرين) كما ورد ذلك في خريطة عالم الخرائط الهولندي (جون بلاو) بخريطة نشرها ١٦٦٨م ومثله (بومان) و(جيوم ليل) الفرنسي الذي نشر خريطته في ١٧٣٣م حيث حدد أماكن صيد اللؤلؤ وكتب عليها عبارة (صيد اللؤلؤ في ساحل البحرين) والذي شمل جميع جزر وقشوت شرق وشمال وجنوب البحرين الحالية . كما كتب (جيوم ليل) على الساحل الشرقي في الخليج عبارة (ساحل مسكون بالعرب) في ١٧٣٣م .

أما (أوال) بالضم ويروى بالفتح فهي جزيرة بناحية البحرين وهي مأهولة بالسكان عند ظهور الإسلام أطلق عليها (أوال نسبة إلى وائل) لأن ابنيه بكر وتغلب سكناها مع قبيلة عبد القيس قبل الإسلام بزمن طويل . ولعل ظهور (أوال) في القرن الثالث الميلادي في عام ٢٦٥م كان مع انتقال بعض من قبائل الأزد وبكر وتميم وربيعة وأسد وبنو عبد القيس ووائل إلى البحرين وبقي اسم (أوال) يطلق على أكبر جزر البحرين منذ القرن الثالث الميلادي إلى حوالي ١٥٨٠م حين انحسار النفوذ البرتغالي إذ أصبح يطلق على الجزيرة الأم والجزر التي حولها اسم (البحرين) واندثر اسم (أوال) فلم يعد يطلق على جزيرة البحرين منذ ذلك التاريخ ولعل من أقدم من أورد ذكر (أوال) : ابن قميئة (المتوفى حوالي٥٤٠م ٨٢ ق. هـ) .

وتوبة بن الحمير العقيلي العامري (ت ٧٠٤م/٨٥هـ) بقوله :

من الناعبات المشي نعباً كأنما ... يناط بجذع من (أوال) جريرها

وقال تميم بن أبي بن مقبل :

عمد الحداة بها لعارض قرية ... فكأنها سفن بسيف (أوال)

وقال السمهري العكلي :

طروح مروح فوق روح كأنما ... يناط بجذع من (أوال) زمامها

وذكرها (الإدريسي) في نزهة المشتاق بقوله : (سميت البحرين بجزيرة أوال وفيها أمير قائم بنفسه قد ارتضاه أهل الساحلين لعدله ومتانة دينه وفيها رؤساء الغواصين ويقصدها الناس من

جميع الأقطار بالأموال الوفيرة . ومثله الشاعر الشاعر جرير المتوفى في حدود ٧٢٨م/ ١١٠هـ قال :

وشبهت الحدوج غداة قو سفين الهند روح من أوال

واستمر ذكر (أوال) في كتب الجغرافيين والرحالةالعرب إذ يطلقونه على أكبر جزر البحرين ومنهم ابن حوقل المتوفى ٩٧٧م والمقدسي (ت. ٩٩٠م) والإدريسي (ت. ١١٦٦م) وسليمان التاجر وابن بطوطة (ت. ١٣٧٧م) وابن ماجد (المتوفى بعد ١٤٩٠م) وباستثناء (ناصر خسرو) الذي كان يذكر جزر البحرين دون أن يسميها (أوال) وذلك خلال رحلاته التي انتهت في عام ١٠٤٢م وقد أورد (بوتس) ما كتبه القديس أبو البركات المتوفى ١٣٢٥م فذكر كلمة (كرين)بفتح الراء،أو كسرها أحياناً وهي في الكتابة الرومانية تهجئة لكلمة (البحرين)وأطلق (ريتر) في عام ١٨٤٦م على البحرين اسم (أوال) وهذه حالة مستثناةلأن المصادر العربية والأجنبية تكاد تجمع على أن (البحرين) تعني مجموعة أرخبيل يتكون من عدة جزر وهي اليوم تشمل مجموعة من الجزر تسمى منها ٣٤ جزيرة مع بعض الفشوت الأخرى والصخور والشعاب التي يغمرها ماء البحر أحياناً وقلما يطلق اسم (أوال) على جزيرة البحرين بعد القرن الخامس عشر . أنظر مجلة الوثيقة، العدد ٢٢ ص٤٦-٥١ ، مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي للدكتور علي أباحسين .

٣ – ظهران كسحبان ساحل الحسا . وكانت قصبته قديماً مشهورة بصنع الثياب الظهرانية المنسوبة إليها . أ هـ مؤلف .

قبلة أهل البحرين مغيب التير . أ. هـ مؤلف .

وقد نظم مقادير المساحات ابن الحاجب المتوفى سنة (٦٤٦) أ. هـ. مؤلف .

٤ – والبعد من نقطة (رأس البرقي البحرين إلى (بر الظهران) حوالي ١٦ كيلو متراً .

درجة من أقصى الشمال ٠٧ و١٠ و٢٧ وتقع البحرين ما بين

درجة من أقصى الشرق ١١ و٠٧ و٥١ .

درجة أدنى الشمال ٠٦ و٣٢ و٢٥ .

درجة من أدنى الشرق ١٣ و١٦ و٥٠ .

المصدر : إدارة المسح رقم م ط ٢١٨-٢/٢٠٠٥/١٥٥ بتاريخ ٢٩ يونيو ٢٠٠٥م

أما مساحة البحرين (أرضاً) بعد قرار التحكيم عام ٢٠٠١م فتبلغ ٧١٢ كيلومتراً مربعاً تقريباً .

ومساحة البحرين (براً وبحراً) حوالي ٨٢٦٩ كم٢ .

أنظر : إدارة المساحة العامة في وزارة الإسكان في البحرين رقم SD/18-02/51 في ٢٠٠١/١١/٤م .

وورد في الطبعة الأولى من التحفة النبهانية ص٦ : أن البحرين واقعة في الخليج العربي ، وعلى بعد عشرة أميال

من بر الظهران . كما ورد في الطبعة الثانية ص١٢ : أن البحرين تقع على بعد ١٢ ميلاً من بر الظهران . ومثل ذلك ورد في الطبعة الأولى من التحفة النبهانية ص٦ ذكر خليج فارس . بينما استدرك ذلك في الطبعة الثانية ص ١١ بتسميته بخليج البصرة .

ومملكة البحرين عبارة عن أرخبيل يحتوي على ٣٦ جزيرة . مساحتها الإجمالية ٧٠٦,٥٥ كيلومتر مربع ، واكبر هذه الجزر جزيرة البحرين والتي تضم العاصمة (المنامة) وتمثل ٨٥٪ تقريباً من إجمالي مساحة جزر المملكة . وتتصل مع المملكة العربية السعودية من خلال (جسر الملك فهد) الذي افتتح في نوفمبر ١٩٨٦م .

أنظر : المجموعة الإحصائية للسنوات من ١٩٨٥- ١٩٩٩م، ص٣ .

د - أما الرفاع الواقعة في المنامة فهي أكثر ارتفاعاً من المحرق .

٦ - **المناخ :**

يتميز المناخ بانخفاض درجات الحرارة وقلة الأمطار في فصل الشتاء، والجفاف مع شدة الحرارة والرطوبة في فصل الصيف .

ففي فصل الشتاء (ديسمبر-فبراير) يتأثر طقس البلاد بالمنخفضات والجبهات الجوية الباردة والقادمة من البحر المتوسط التي بدورها تسبب اضطرابات جوية مصحوبة بأمطار يبلغ معدلها السنوي حوالي ٧٤ مليمتراً . ويعد شهر يناير من أبرد شهور السنة حيث تنخفض درجات الحرارة إلى أدنى معدل لها في هذا الشهر. اما الرياح السائدة خلال هذا الفصل فهي الشمالية الغربية .

وفي فصل الصيف (يونيو-سبتمبر) يكون الطقس حاراً بوجه عام مع ارتفاع ملحوظ في درجة حرارة الهواء الرطب، ويتأثر طقس البلاد بالمنخفض الجوي الموسمي الذي يتكون فوق الباكستان خلال شهري يونيو ويوليو مسبباً هبوب رياح شمالية غربية جافة تعرف محلياً بالبارح وتؤدي إلى تلطيف حرارة الجو .

بعد هذه الفترة يبدأ المنخفض الجوي الموسمي بالتلاشي في أواخر شهر يوليو وينتج عن ذلك هبوب رياح جنوبية شرقية تعرف محلياً بالكوس يصحبها ارتفاع في درجة الحرارة والرطوبة .

أنظر : المجموعة الإحصائية ١٩٨٥-١٩٩٩م . ص٣ .

وسطح البحرين منخفض . يصل ارتفاعه الأقصى إلى ١٣٤ متراً باستثناء شريط الساحل الشمالي والشمالي الغربي الضيق من الأرض الخصبة . فإن أغلب جزيرة البحرين عبارة عن أرض صخرية جيرية تغطيها كثبان من الرمال الجافة والمالحة التي لا تساعد على نمو المزروعات الطبيعية باستثناء بعض النباتات البرية .

٧ - البحرين بها مغاص اللؤلؤ أما كيفية استخراجه فيكون من أول شهر نيسان إلى آخر أيلول وباقي شهور السنة لا غوص فيه . واللؤلؤ يتربى في صدفــة . والصدف حيوان بحري له روح في

جسده . وداخل الصدفة لحم أبيض واللؤلؤ فرز منه وأصله من مطر نيسان إذا أمطر البحر في شهر نيسان تخرج تلك الصدفة إلى وجه الماء فتنفتح كل قطرة تنزل فيها فيتربى في ذلك درة نفيسة . ويدهن الغواصون أنفسهم بالسواد عند الغوص خوفاً من بلع دواب البحر إياهم . ويصيحون عند الغوص صياحاً قوياً لنفور الحيوانات من حولهم . ومن سكن بهذه المنطقة يعظم طحاله وينتفخ بطنه . وينسب إليها القرامطة .

وإن أعظم محصول للؤلؤ في البحرين كان ١٩١٨م/١٣٣٨هـ وثمنه ٩ ملايين روبية ونصف . وأخرجت لؤلؤة نادرة بلغ وزنها ٣٣٦ جواً بيعت في الهند بمبلغ مليون و٤٠٠ ألف روبية . ومجموع السفن لتلك السنة ٦٢٠ سفينة .

أنظر : صوت البحرين، العدد ٢، السنة الأولى ١٣٦٩هـ، ص٧ .

ومغاصات اللؤلؤ في البحرين : منها ما يقع في شمال شرق جزيرة المحرق بشكل ربع دائرة وتستخدمها السفن البحرينية وهي :

في الشمال : (مبانه) ويبعد هذا المغاص حوالي ٥٣ ميلاً عن المنامة عاصمة البحرين .

وفي الشمال الشرقي : (أبا الخراب) ويبعد ٤٨ ميلاً عن المنامة .

و (أبو سوان) ويبعد نحو ٤٦ ميلاً عن المنامة .

و (نجوة الرميحي) ويبعد نحو ٥٥ ميلاً عن المنامة .

و (نجوة أم القرص) ويبعد نحو ٦٤ ميلاً عن المنامة .

وكذلك المغاصات التالية : وتستخدم بواسطة السفن البحرينية وغيرها في شمال شرق جزيرة المحرق وبشكل ربع دائرة وهي : (شتيا) وهو من أكبر المغاصات ويبلغ طوله نحو عشرة أميال و (شقيقة / خوره / بوعمامه / بولثامة / بودكل (بوديقيل) / شيخ / الواسعة / الدبيل / صفيق البر (بمحاذاة رأس تنورة) / بوعلي / العظمة / الوادي / توبلي / نجوة العماري .

أنظر : وثيقة برقم آر/١٥/١/٦١٦/١/٧٨/١ من وايتمن إلى الكابتن هاو .

وورد في رسالة مؤرخة في ٢٧ ربيع ثاني ١٣٣٢هـ إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حول شراء دانة بخمسين لك روبية (اللك ألف روبية) اشتراها واحد من أهل أمريكان . أنظر الرسالة مرفقة .

وشهد عام ١٩٢٥ تحسناً كبيراً في نظام الغوص وعين محاسب هندي له إلمام باللغة العربية للاحتفاظ بحسابات الغوص .

وفي بداية العام التالي كان وارد اللؤلؤ جيداً إلا أنه تعرض للكساد في أواخر العام بسبب قلة المحصول . وحدثت عاصفة شديدة أدت إلى غرق نحو ٤٠ سفينة، وإلى خسائر بالأرواح . كما

فرضت ضرائب على صناعة الأشرعة فتوقف إنتاجها . ويتوقع أن تنتعش هذه الصناعة من جديد . هذا ما أورده الوكيل السياسي (ديلي) .

وكان حصاد اللؤلؤ عام ١٩٢٧م أحسن من العام السابق .

وفي تقرير عام ١٩٢٨م كان صيد اللؤلؤ مثمراً فازدهرت التجارة بصفة عامة .

ولم يكن اللؤلؤ مثمراً عام ١٩١٩م . إذ هبطت سوق اللؤلؤ هذا العام رغم أن الحصاد كان مثمراً لكن المبيعات ضئيلة . وتجري محاولات لتحسين ظروف الغوص والغواصين .

وتم صنع ١٨ سفينة و ٥٥ مركباً شراعياً بينما صنعت ٨٩ سفينة جديدة في العام السابق .

وأخبر الشيوخ حكومة الهند بأنهم يعتبرون مغاصات اللؤلؤ ملكاً مشتركا لهم ولا يحق لأي شيخ أن يعطي حق الصيد لأي طرف آخر ولا لزورق ياباني أن يمارس صيد السمك في مياه الخليج إلا بمشورة الإنجليز .

وفي سنة ١٩٣٠م افتتح البنك الشرقي (إيسترن بنك) وذلك في ٢٥ يونيو . وحضر مراسم الافتتاح جمهور من التجار والأعيان . وتم تشييد المبنى للبنك فيما بعد .

وأعلنت الحرب العالمية الثانية أيام الشيخ حمد فأسس دار التموين ووفر الأطعمة والألبسة ليوزعها على الأهالي وفق نظام البطاقات حيث ضمن التوزيع العادل للجميع . وبذلك ضرب على أيدي المحتكرين والانتهازيين .

أنظر الوثيقة، العدد ٤٣ يناير ٢٠٠٣م، ص١٢٦ و١٢٧ .

٨ – **المحار** في اللغة اسم للحيوان الذي بين الصدفتين فكأنهم جعلوه من باب تسمية المحل باسم الحال . أ. هـ. مؤلف .

٩ – **أما الصدف** : فكانت البحرين تصدر الصدف إلى مسقط حيث توجد شركة سبزبان ووكيلها في البحرين محمد وعلي يتيم وقد كانت إحدى صفقاته بمبلغ ٨٥٣٦ روبية . ورد ذلك في تقرير وقعه وختمه كل من رئيس مجلس التجارة (الشيخ راشد بن محمد بن خليفة آل خليفة)ثم السادة عبد الرحمن بن محمد الزياني، وعبد العزيز بن حسن القصيبي، وسليمان الحمد البسام، ومحمد الطيب خنجي، وعبد الله بن عبد الله الشاري، وأحمد بن حسن، وعبد النبي بن أحمد بوشهري، ومحمود بن عباس، وعبد علي بن رجب، ومحمد سعيد بن يوسف علي أكبر، وخليل إبراهيم كانو، وعبد الرحمن المحمد البسام، وأحمد بن عيسى بن علي بن صقر الجلاهمة، وأحمد بن سلوم، وحسين علي كاظم، وحافظ خنباني البهرة، ودمنهم أسير داس، ودامو درداس هيمنداس .

كما صدرت البحرين في ١٩٠١م الصدف إلى المستر (دالكوس) وهو ألماني استورد بين ٦ – ١٠ آلاف جونية قهوة من المحار بسعر كل جونية روبيتين ونصف . وكان وكيله علي بن إبراهيم

الزياني .

أما لوبنكسن المقيم في بوشهر فكان يريد أن يشتري محاراً من البحرين بالشراكة مع (أسوا) وطلب القبطان دكت من شيخ البحرين تسهيل أمور الشركة .

أنظر : الوثيقة ، العدد ٤٣، يناير ٢٠٠٣م، ص١٢٦ .

وفي رسالة مؤرخة في ٢٩ محرم ١٣١٤هـ/١١ يوليو ١٨٩٦م من قبطان (دكت) باليوز وقنصل جنرال الدولة البهية القيصرية جناب الأعز الأحشم عمدة الأصحاب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، طلب شراء المحار من قبل شركتي زليونكس وأسوزكيو .

وفي تقرير كتبه محمد علي داو خادم الجرمني (ميترز تكاس ايند كمبني) حول كيل المحار بقوله : إن كبير الحمالية الذين يخدمون الكمبني ويجيلون المحار مشاهرتي ١٨ روبية .

أنظر : الوثيقة رقم ١٧٦ في ١٨٩٦/٧/١١م .

وورد في رسالة توصية من (كاسكين) المعتمد السياسي في البحرين إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حول تسليم عشرة آلاف جونية (كيس) من المحار في مدة ثمانية أشهر بسعر روبيتين ونصف لكل جونية .

أنظر : وثيقة رقم ١٩٠١/٢٢٠ وتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٠١م .

١٠ – كان يوجد في البحرين نحو مائتي عين اندثر بعضها . وفي منطقة الرفاع وما حولها عيون كثيرة منها : أربع عيون في جهة الجنوب وتقع (روضة أحمد الفاتح) في الرفاع الغربي حيث كان يقضي فيها الربيع حين قدومه من عاصمته الزبارة وقتئذ والتي كان يقضي فيها الصيف . وفي الرفاع الشرقي **(عين الحنينية)** المشهورة بعذوبة مائها والتي أمر بحفرها (الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح) الذي دام حكمه في البحرين من عام ١٧٩٥–١٨٢١م وأوقف عليها نخلاً لتعميرها وجعلها سبيلاً لعامة الناس . وتتكون العين من بئرين متجاورتين وعمقها يصل إلى نحو ١٧ قامة في الشتاء إحداهما تستعمل للري فقط والأخرى لمياه الشرب . وكان الناس ينقلون المياه على الجمال والحمير إلى المنامة . وسميت بالحنينية لحلاوة مائها، نسبة إلى الحنيني وهو نوع من الخبز الحلو . وعمقها نحو ثمانية أبواع . وأوقف الشيخ سلمان بن أحمد عليها نخلا لتعميرها ولإظهار الماء منها إلى بركة بحذائها ليستقي منها عامة الناس ولسقي بعض النخيل التي زرعتها بلدية الرفاع حولها .

ومن العيون الأخرى :

أم الشعوم :

تقع جنوب المنامة بالقرب من الماحوز . وكانت تستخدم للري وللشرب وغسل الملابس والاستحمام ولها ساب (مجرى) وفي قول تقع في القضيبية .

أم المومیان :

وتقع في روضة الصخور (وهي عين ارتوازية) .

أم الحصاة :

وتقع في الصخير، أو تقع في روضة الصخير (وهي عين ارتوازية) وماؤها عذب .

والصخير أسسها وسكن فيها الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة ١٣١٨هـ ونزل فيها حاكم البحرين الأسبق الشيخ حمد بن عيسى بن علي وبنى فيها قصوراً جميلة ومجالس وفيها عيون ماء . والصخير تقع على ربوة متسعة تنتهي بمنحدر يشبه الرياض وتتجمع فيها مياه الأمطار وتصبح في الربيع غاية من الجمال . وفي الصخير ثلاث عيون للماء هي :

عين أم الحصاة وماؤها عذب . وعين أم المومیان . والعين الجنوبية .

أم السجور :

وتقع في قرية دراز وجد فيها تمثالان وقد قطعت رأساهما، عثرت عليهما البعثة الدنماركية . وهي تدل على أنها ردمت في قديم الزمان ولم تردم في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان .

أم رميثة :

أو عين رميثة، وتقع في رميثة . (وهي عين ارتوازية) . (وتقع جنوب المنامة في منطقة رميثة) قرب الصخير .

أم عبد الله :

نبع ماء وبالقرب منها أرض صخرية .

أم مجرى / وعين أم مجرى :

وتقع بين صدد وكرزكان . (في المنطقة الغربية شمال شرق دمستان وهي عين ارتوازية) .

أم جدر :

وتقع في روضة الصخير وبها عين كانت محاطة بجدار وموقعها شمال العمر بحوالي ميل، وجنوبي غرب جبل الدخان بميلين .

أم قويفة :

تقع في الصخير وهي بئر أمر بحفرها والد الشيخ علي بن خليفة في الرفاع القبلي وهو الشيخ خليفة بن سلمان بن أحمد الفاتح وعمقها ٢٤ باعاً . وأوقف عليها نخلا لتعميرها . (وتقع في روضة الرفاع الشرقي وهي عين ارتوازية) وإن قيل أن العين تقع في الرفاع الغربي وهي من أحسن العيون في الجزيرةوتقع على السهل المرتفع وكان يباع ماؤها في المنامة .

أم السوالي :

تقع شرقي جزيرة أم الشجر في نهاية منطقة الحد من الشرق وتقع في البحر . وفي قول آخر تقع بالبر .

عين أم الطنابير :

عين الأسل : تقع في سترة .

عين أحمد :

تقع في الحد وكانت موجودة في النخيل قرب المطار .

عين بوماهر / وكوكب بوماهر :

تقع في جزيرة المحرق . وهي أشهر العيون حيث تقع بالقرب من البحر شمال حالة بوماهر و(كوكب بوماهر) نسبة للماء الذي في البحر .

وتقع في الحالة قلعة بوماهر جنوب المحرق . وكانت الحالة في الماضي منفصلة عن جزيرة المحرق يحيط بها الماء من جميع الجهات . والقلعة تشبه القلاع الموجودة في البحرين مثل قلعة الرفاع وقلعة عراد . والقلعة بناها الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة كما يوجد بجانبها ينبوع ماء حلو يسمى (جوجب بوماهر) وكمية التصريف (١٦٠٠٠ برميل في اليوم حسب ما ورد عام ١٩٥٣م وانخفض إلى ٤٦٤ عام ١٩٧٠م . (في حالة بوماهر نبع الغواصة والذي كان يغذي مدينة المحرق بأغلب ماء الشرب) .

وحالة بوماهر أرض يحيط بها البحر في حالة المد ولكنها تتصل بالأرض في حالة الجزر . ويوجد بها قلعة . وتقع على بعد ٦٠٠ متر شرق القلعة . وعلى بعد قامة تحت سطح البحر (عين بوماهر) المشهورة بعذوبتها هي دافئة قليلاً وتستخدم القوارب لجلب الماء منها وهي المصدر الرئيسي لماء المحرق .

عين بوزيد :

وهي عين ارتوازية .

عين بوزيدان :

وتقع في منطقة الخميس شرقي عين عذاري قرب البلاد القديم (مقابل مسجد الخميس) ذكرها الإدريسي المتوفي ٥٦٠هـ ١١٦٥م في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ص٥١ قال : عين عذبة تقع في وسط بلد أوال .

عين بن مطر :

وتقع في المحرق وهي عين ارتوازية .

عين بورحية :

وتقع في عراد وقد جفت .

عين البوم (البويم) :

وتقع في عراد .

عين بورشيد / عين ابن رشدان :

وتقع في جنوب الحد .

وعين بن رشدان في المحرق وهي عين ارتوازية .

عين البوسميط :

وتقع شمال حنيرة وهي عين ارتوازية في عسكر

عين سفا/ عين يوسف/ البوسميط على بعد ميل شمال غرب عسكر .

عين بيز :

وتقع في سترة .

عين بن حديد :

وتقع في فريق كانو وهي عين ارتوازية .

عين بن هندي :

وتقع في وسط الحد بجزيرة المحرق وتنقسم إلى عين شرقية وعين غربية .

عين بوجرجور :

وتقع شمال البحرين .

عين البلدية :

وتقع في المنطقة الشمالية من الحد شرقي مركز الشرطة .

عين بوشارة :

في توبلي .

عين جرادة :

في قطعة جزيرة جراده . أنظر بحثنا الديبل فيها بئر ماء عذب .

عين جردي :

وتقع في قلالي . وهو ينبوع في البحر .

عين جبر المسلم :

وتقع على الساحل الشرقي في فريج المسلم في الحد .

عين الجليعة :

وتقع في خور فشت .

عين الجزيرة :

وتقع في جزيرة النبيه صالح .

عين الجسر / عين الرويعي :

وتقع في الرفاع الشرقي وهي عين ارتوازية تقع في روضة الرفاع الشرقي .

عين الجبيلية – وعين الحجلة :

في عالي .

عين الجويب :

غير معروف . انه وادي يصب جبلي الشارع .

عين الجفر :

وتقع في دراز .

جري الشيخ :

نسبة إلى الشيخ أحمد الفاتح وتقع قرب عالي وعلى يساره تقع (الروضة) أو روضة الشيخ أحمد على اليسار .

عين حويص :

في بوري .

عين حد حلب :

في المحرق .

عين الحمّام :

في كرزكان .

عين حليتان :

جنوب الوسمية . كان به نبع ماء بارد ترد عليه الظباء للشرب .

عين الحجر :

في الحالة بجزيرة المحرق .

عين حسن بن سعود أو عين حسن بن سعد :

وتقع عند تقاطع الرحى / في البديع وهي عين ارتوازية .

عين الحسينية :

وتقع في سار وهي للشيخ عبد الله بن عيسى بن علي آل خليفة مع عين الظهران .

عين الحمسة :

في قرية توبلي (قطرها ٥٠ قدماً ماؤها رائق ويتدفق من جهة الشمال والشمال الغربي، وقد بلغت ملوحته عام ١٩٥٣م حوالي ٢١٤٥ جزءاً من المليون . ويتدفق بمعدل ٢٠٠٠ برميل في اليوم وقد ردمت .

عين الحداده :

وتقع في فريق الزيانية بالمحرق وهي عين ارتوازية .

عين حميان :

وتقع في بستان الزمه الواقع شمال غرب مدينة الحد . ولها أهمية كبيرة لسكان منطقة الحد كونها تستعمل للشرب وغسل الأواني والملابس وكذلك نقام النذور حيث يعتقدون أن بها جني يسمى (مسعود الزمه) ويقال عنه أنه رجل أسود طويل القامة فيقدمون له الولائم ويلقون له في هذه العين البيض والمشموم وماء الورد توسلاً لكي يساعدهم في الشفاء من المرض ويحقق لهم ما يرغبون به . وهذه أسطورة . والأساطير من الأباطيل التي لادليل لها .

عين الحمر /أو عين المنصور :

وتقع في المحرق وهي عين ارتوازية .

عين حفيرة :

وتقع في الصخير . كان أفراد (أوادم) من النعيم وأهالي جو وعسكر يعتمدون عليها للشرب . وتقع في حفيرة .

في الحد :

وهي عين ارتوازية تقع على جنوب الساحل الشرقي من جزيرة النامة .

عين الحنينية :

وتقع في وادي الرفاع وماؤها عذب وأرضها خصبة .

والرفاع مقر الأسرة الحاكمة والأعيان وفيها قلعة بناها الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة وبها (أربع آبار ماء) ثلاث منها جهة الجنوب في (الروضة) التي كانت تزرع في السابق وهي من حفر الأقدمين . والرابعة جهة الشمال وتسمى (الحنينية) وهي أحسن عيون البحرين وتمتاز بعذوبة مائها وحلاوته وخصوبة أرضها المجاورة حيث كان يزرع القمح وفيها توجد بعض

النخيل المجاورة للعين .

ويذكر لوريمر أن أهالي المنامة كانوا يعتمدون على المياه الحلوة التي تجلب على الجمال من الرفاع من عين الحنينية وأم قويقة . والماء الذي يستعمله الفقراء يأتي من أحد مصدرين (القفول) أو عين (مقبل) أو (مجل) .

عين حديد :

وتقع في فريق كانو .

عين الحاله :

في المحرق وهي عين ارتوازية .

عين حسينوه :

في المحرق وهي عين ارتوازية شمال غرب المحرق قرب البحر .

عين حكيم :

في جرداب شرقي المنطقة الوسطى المطلة على البحر . وعين الحكيم وتقع على الساحل الشرقي محاذية للبحر مقابل جزيرة النبيه صالح تقريباً . وهي عبارة عن بركة دائرية قطرها ٦٠ قدما وتبلغ نسبة ملوحة مياهها حسب قياس ١٩٣٥م ٢٠٥٠ جزءاً في المليون . وهي تتدفق بمعدل ٥٥٠٠٠ برميل في اليوم ويستعمل ماؤها في ري المزارع المجاورة .

عين خور فشت :

وتوجد في قلب البحر شمال البحرين .

عين خالد :

وتقع في الرفاع الشرقي وهي من أحسن الآبار ويمكن الحصول على المياه منها على عمق ٢٠ قامة تحت مستوى سطح الأرض وتقع في منطقة (الخضره) وهي منطقة مقفرة لايسكنها أحد كما أنه ليس هناك قرى بالقرب منها . وماء هذه العين رائق ونظيف رغم وجود حشائش تحت سطحه وهو يتدفق من الناحية الشمالية من العين . وتبلغ كمية تدفقه ٢٠٠٠ برميل في اليوم . أما ملوحته فقد بلغت عام ١٩٥٣م ١٥٥٠ جزء في المليون . **وبئر خالد** : يقع على الهضبة المرتفعة داخل قرية الرفاع الشرقي وهي بئر عميقة يحصل منها المواطنون على مياه الشرب .

عين أم جريع :

وتقع على بعد ثلاثة أميال ونصف غربي الرفاع الغربي . وهو ينبوع تسير مياهه عن طريق الأفلاج إلى غابات نخيل كرزكان .

العمرو :

إذا أحس بالتعب فيذهب ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً ليقضي بها بضع ساعات .

عين الرفيع :

وتقع في أم الحصم .

عين راشد : وتقع في البديع .

عين الزيايئة :

وتقع في القضيبية وهو اسم غلب على أول بئر ارتوازية حفرت في جنوب شرق المنامة بالقضيبية بل وفي البحرين . وسميت بهذا الاسم لأنها تقع بالقرب من بيت الوجيه المعروف عبد الرحمن بن محمد الزياني .

عين الزمه :

وتقع في بر الحد قرب مقبرة الحد. وأيام حرب الزبارة كان القائد القطري في معركة (دامسة) بريد دامسة ولكن لم يتحقق ذلك ونسبت إلى (زمام) وهو شيء من الذهب والفضة تضعه النساء في أنوفهن للزينة كما يوضع للناقة أيضاً .

(تقع مزرعة الزمه على بعد نصف ميل شمالي الحد . وتقع في هذه المنطقة ينبوع أو بئر ماء تغذي سكان مدينة الحد) .

عين زامل :

عين السايه : قرب بسيتين . كان أيضاً في البسيتين عين قرب المقبرة وقد ردمت . وهو ينبوع في البسيتين يقع في البحر الغربي لنطقة البسيتين . وهو ينبوع في البحر عذب ويقع في الجهة الشمالية الغربية من السابة يشرب منها أهل البسيتين شمال المحرق .

عين سوق الأربعاء :

بالمنامة .

سيحة الشرق :

من عالي .

السواني :

عين سياده :

نسبة إلى خرابة السادة بالمحرق .

ويقع (سوق محيش) في المحرق شرقي عين الساده .

عين السيد :

تابعة للهملة وهي في سبحة (سبخة) الهملة وهي عين يجري ماؤها إلى نخيل الهملة وتقع في جنوب غربي الحد على الساحل .

وعين السيد الأولى وتقع في قرية توبلي وهي عبارة عن بركة كبيرة طولها ٣٠٠ قدم وعرضها ١٠٠ قدم وماؤها رائق وعميق وقد بلغت ملوحته عام ١٩٥٣م حوالي ٣٧٠٠ جزء في المليون أما تدفقه في ذلك العام فكان ٤٠,٥٠٠ برميل في اليوم . وقد ردمت .

عين السفاحية :

أو كوكب السفاحية . وتقع في النبيه صالح . وهو كوكب يمتاز بعذوبة وبرودة مائه .

عين السودان :

وتقع في الحد .

عين السهلة :

غرب البديع . قرب مسجد عبد العزيز .

عين السفاله :

قرية سفاله وتقع على الساحل الشرقي لجزيرة ستره على بعد ميل ونصف من الطرف الشمالي للجزيره . وتوجد بها مياه من ينبوع جيد يسمى (مهزه) وتوجد مزارع النخيل إلى الشمال .

عين السجور :

شرقي راني .

عين سمادوه :

في المحرق وهي عين ارتوازية ومن أشهر وأقدم العيون التي حفرت في البحرين .

سند : وفيها أربع عيون :

عين سيب في سند :

وهي عين في البر . وجوجب ماء عذب وبارد . يقع في النبيه صالح . وسبب قرية قديمة قرب (دار كليب) .

عين سعاده :

وهي عين الشيخ سلمان في الرفاع الغربي (وهي عين ارتوازية) .

عين شريبة :

عين لها عنقان بري وبحري .

عين شهركان :

وتسمى عين الشيخ حمد .

عين شول :

وتقع في روضة الرفاع الشرقي . وهي عين ارتوازية وتقع غرب الرفاع وهي عين اندفعت . والمنخفض غربي جنوب الرفاع الشرقي يسمى (روضة عين شوك) وتقع شمالي طريق العوالي – ستره .

عين الصمان :

أو عين أم جدر الصمان . وهي عين ارتوازية وتقع في الصخير على بعد نحو ميلين شرقي الرميثة .

عين صحارا / أو صحاره :

وتقع في شهركان الواقعة في ضلع دور مبارك . وفي قول (صخارا) وليست صحارا وهي عين ارتوازية "

عين الصخير :

وتقع في الصخير .

عين الصغيرة :

عين الظهران :

في سار وهي للشيخ عبد الله بن عيسى .

عين الطبع : وتقع في عراد

يا شارب ماي الطبع ياما كل خنيزي عراد

عين طويه :

(وتقع في عراد) بالمحرق . في حالة خليفات . حينما تترك المحرق وتتجه صوب عراد في طريق يشق عراد إلى قسمين . فأول ما يواجهك (حالة خليفات) وقبيل دخولك الحاله تجد مرتفعاً لعله مسجد لم يبق منه إلا بقايا حجارة متناثرة وتل من التراب تغطي بقاياه . وعين الدوي العين الشمالية والعين الجنوبية . وتقع في منطقة البديع .

وفي قول (العين الشمالية والجنوبية وتقع في قلالي) .

العين العذبة :

وتقع في منطقة البديع .

عين العتيجة :

عين عبد الكريم أو (عين الكرايم) وتقع في قرية (توبلي) على شكل بركة كبيرة طولها مائة قدم وعرضها خمسون قدماً وتمتلئ هذه العين بالحشائش وماؤها رائق وهو يتدفق بكميات ضئيلة في المنطقة الشمالية من العين . وقد بلغت نسبة الملوحة فيه سنة ١٩٥٣م ٣٠٥٠ جزءاً من المليون .

القصار : نتوء صغير في البحر ظاهر . أو جزيرة صغيرة وأحياناً يغطيها البحر .

الفشت : أكبر من القصار .

القطعة : صخرة عريضة تحت البحر أو فوقه مثل قطعة جرادة .

الدوحة : مدوحة بحر يمشي ويروح تشبه الهلال مفتوحة على البحر . مثل دوحة القضيبية (الوثيقة ٨/ ص١٥٨) .

الكوكب : وهو نبع في وسط البحر وماؤه عذب بارد . ويقدر عدد الكواكب أكثر من ٣٠ وذلك في بداية القرن العشرين .

الهور : منخفض يقع في غربي المدرسة الهندية بعد دوار عالي وهو منخفض ويمتد حتى يصل إلى سلماباد .

غزال : لا أعرف مكان في هذا الموقع بهذا الاسم وإنما يسمى هورة ثلاب وهناك عين تسمى عين السيد يجري ماؤها إلى نخيل الهمله .

الهربدية : يطلق عليه خطأ (حربادية) اسم نخل بالقرب من الرقعة .

قرن إبراهيم : غربي الرميثة تل مرتفع بنى عليه الشيخ حمد بن عيسى بن علي جداراً للظل حيث كان يجلس في ظله وهو مطل على جميع الأراضي التي حوله .

حليتان : جنوبي الوسمية كان به نبع ماء ترد عليه الظباء للشرب .

الجيله : لم أعرف الموقع ويبعد ٥ أميال شمال جبل الدخان معناه شمالي العوالي وحسب التقريب يمكن أن يكون جبل سافره بالقرب من مركز الشرطة في سافره حيث يوجد نبع في البحر كانت تستقي منه سفن الغوص في الماضي ويغطيه البحر والذي يريد أن يأخذ منه الماء يغوص بالقربة ويملأها .

القاره الشمالية : (يطلق عليها خطأ القعرة الشمالية) شمال جبل الدخان .

القاره الجنوبية : (يطلق عليها خطأ القعرة الجنوبية) جنوب جبل الدخان .

عين القار : جنوبي القاره الجنوبية وغربي حفيره بحوالي ميلين .

رفـه : ويطلق عليها خطأ روفي وهي الأرض المنبسطة جنوبي سافره وشمال غربي العوالي على بعد ميلين .

ضلع رفه : ويطلق عليه خطأ رِوفاح : وهي أرض صخرية مرتفعة بين رفه المشار إليها ودار كليب .

جبل الرمامين : قمتان لهضبتين صخريتين ورأساهما مكوران على شكل رمانة أو كرة شمالي جبل الدخان .

عين يوسف : أو عين البو سميط ويطلق عليه خطأ عين سفا : على بعد ميل شمال غربي عسكر .

عين شول : ويطلق عليها خطأ (عين الشول) : اسم لعين تقع غربي الرفاع وهي مندفنة . والمنخفض غربي جنوبي الرفاع الشـــرقي يسمى روضة عين شول وتقع شمالي طريق العوالي ستره .

أم جدر العمر : ويطلق عليها خطأ (أم حد) وبها روضة وفيها عين وكانت محاطة بجدار وموقعها شمالي العمر بحوالي ميل وجنوب غربي جبل الدخان بميلين .

أم جدر الصمان : ويطلق عليها أم بادر : وتقع على بعد ميلين جنوب شرقي الرميثة .

العقيلة : ويطلق عليها خطأ (عين عقلة) : جنوبي المطله وجنوب غربي الرميثه بحوالي ميلين . ويوجد أيضاً عشرات العيون المندثرة في البحرين .

أنظر : الوثيقة، العدد ١٥٨/٨ ؛ والمريخي ص١٧٤ ؛ ولوريمر ١٨٨٦/٤ و ٢٢٠٣ و ٢٧٩٩ و ٢٨٠٠ والتحفة النبهانية ص٥٦ و٦٦ .

١١ – وقد تبين من حفريات البعثة الدنماركية عام ١٩٥٤م أن (عيون الماء) قد ردمت قبل العهد الأموي بفترة تاريخية طويلة . إذا عثرت البعثة الأثرية الدنماركية على تمثالين لكبشين من الحجر الجيري مع أدوات فخارية تعود لفترة مدافن عالي وباربار في حوالي – ألفي عام قبل الميلاد .

لذا فإن ما ورد عن أن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي هو الذي أمر بردم عيون البحرين (ط ١ . ص٩ . وفي الطبعة الثانية ص٢٦ أن أحد عمال عبد الملك بن مروان الأموي هو الذي أمر بردم عيون البحرين العظيمة بسبب تمرد أهل البحرين عليه . وبعد أن اكتشفت البعثة الدنماركية الآثار فلا صحة لما ورد في الطبعتين من التحفة النبهانية .

١٢ – جزر البحرين الغربية

جزيرة (أم النعسان) :

وهي من جزر البحرين الغربية : ويطلق عليها اليوم (الجزيرة) . وهي تكاد تكون أقرب إلى الاستدارة . وقد أمر سمو الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة بحفر عدة آبار ارتوازية فيها

ثم غرست في الجزيرة النخيل والأشجار . وتسمى البساتين الواقعة في القسم الغربي منها باسم (القطارة) كما يسمى القسم الجنوبي الشرقي منها باسم (السهيلة) . أما باقي أجزاء جزيرة أم النعسان فهي غير مزروعة حيث أصبحت مرتعا للظباء والأرانب الكثيرة . وقد واصل سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وسمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة العناية بهذه الجزيرة . وهكذا كانت جزيرة أم النعسان كما يطلق عليها هي بحق (الجزيرة الخضراء) اليوم . وليس في جزيرة (أم النعسان) سكن غير سكنى الفلاحين الذين يقومون بالعناية ببساتينها . وهم يعملون بمرتب شهري يستلمونه من صاحب السمو الأمير . وقد كانت أم النعسان قاحلة في القديم ليس فيها زرع ولا ضرع ولا ماء غير أن الصخرة أو النتوء الصخري الواقع في الجهة الغربية منها يقطر منه الماء العذب قطرات متتابعة بطيئة تجمع في أوان تكفي للشرب وللطبخ . ويبلغ طول هذا النتوء الصخري حوالي عشرين قدماً، والماء يقطر منه على طوله ويرتفع هذا النتوء عن سطح البحر ما بين ثمانية إلى تسعة أقدام .

وفي مؤشرات اجتماعية عن البحرين ص٤ عن إحصاء ١٩٨١م صادر من إدارة الإحصاء أن مساحة أم النعسان ٧,٩ كيلومتر مربع .

جزيرة أم الصبان :

وهي جزيرة صغيرة أصغر مساحة من (جداء) إذ تبلغ مساحتها حوالي ٤٠,٠٠٠ قدم مربع وتبعد عن البديع بحوالي نصف ساعة في القارب البخاري . وقد كانت في الزمن القديم جزيرة قاحلة وليس فيها ماء حتى وهبها سمو الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة إلى (تعبرك) وهو أحد رجال شركة نفط البحرين المعروفين فقام بتعميرها وإصلاحها وحفر فيها الآبار الارتوازيةوبنى فيها القصور ونسق حدائقها فأصبحت كجنة من جنان الدنيا وخاصة الجزء الشمالي منها . ثم إن (تعبرك) رغب في بيعها فباعها وفي إحصاء ١٩٨١م لإدارة الإحصاء أن مساحة جزيرة أم الصبان ٠,١ كم مربع أو ٠,٠٤ ميل مربع .

جزيرة جداء :

ومساحتها تبلغ ثلاثة كيلومترات مربعة (٠,٣ كم مربع أو ما يعادل ٠,١ ميل[٢] . في مؤشرات اجتماعية عن البحرين ص٤ عن وزارة العمل أخذها عن المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨١/ إدارة الإحصاء . وتقع في الجهة الشمالية من الجزيرة الخضراء (أم النعسان) وتبعد عن جزيرة أوال بنحو نصف ساعة في القارب البخاري . وهي صغيرة سطحها جبلي ينخفض نحو الساحل الجنوبي بسهل ضيق .

ولم يعرف عنها إلا ما كتب على حجر فيها حيث وافق الفراغ في قطع منها مائة ألف صخرة لبناء بروج قلعة البحرين . وأرخ ذلك الحجر في شهر شعبان سنة ثمان وستين وتسعمائة وذلك

في عهد وزارة الوزير الأعظم جلال الدين مراد محمود شاه . ولا يوجد في جزيرة (جداء) ماء . إلا أن الحكومة في الزمن الأخير اهتمت بتوفير المياه فيها فحفرت عيناً ارتوازية تدفق فيها الماء وزرع فيها بستان صغير بنى فيه سجن يقضي فيه السجناء مدة حكمهم ممن تزيد أحكامهم على الشهر .

جزيرة سترة :

وهي الجزيرة الثالثة من جزر البحرين من حيث الأهمية والمساحة إذ تبلغ مساحتها ١١,٤ كيلومتر مربع أو ٤,٤ ميل مربع . أنظر : مؤشرات اجتماعية عن البحرين ص٤ حسب إحصائية ١٩٨١م لإدارة الإحصاء . وفي جزيرة (سترة) سبع قرى تكثر فيها النخيل والأشجار وترتبط بجزيرة أوال بجسر . وتوجد في الجهة الشمالية والشرقية من الجزيرة عدة قصاصير صغيرة .

وفي (سترة) خزانات كبيرة للنفط . كما أن فيها مصنع لصناعة البراميل ويمتد الميناء إلى جهة الشرق حيث ناقلات النفط والبواخر الأخرى .

ويبلغ عدد سكان جزيرة (ستره) ٢٢,٩٩٣ نسمة حسب إحصاء ١٩٨١م وعدد الوحدات السكنية فيها لنفس العام ٢٤٤٥ وحدة سكنية .

أنظر : إحصائية إدارة الإحصاء لعام ١٩٨١م ص٤٨٧ .

وحُوار :

بضم الحاء فهو شدة البياض وهي صفة لجزر حوار التي يكثر فيها الجبس وينقل منها الجص على ما لدينا من وثائق صدرت من حكومة البحرين . وكان أهل جزيرة حوار قبل ما يزيد على نصف قرن ينقلون الجص إلى البحرين . وربما أن كلمة (حوار) مشتقة من شدة البياض ولكون حوار فيها مادة الجص التي تبنى بها البيوت وتبلط حيطانها فغلب عليها الاسم وإن كان اسم حوار ورد لاسم "زياد حوارين" لأنه كان قد فتحها وهي من البحرين وأخوه خلاس بن عمرو كان فتيهاً من أصحاب علي بن أبي طالب (رض) . أنظر : حوار في الوثائق التاريخية للدكتور علي أباحسين ص٣ و٩ ط ١، البحرين ١٩٨٧م نقلاً عن ابن ماكولا . (ت٤٧٥هـ/١٠٨٢م) ؛ والأكمال، جـ١، ص٩٩ ؛ والسمعاني، (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م) ص١٠ .

جبل الدخان :

ويقع على بعد يسير من (الصخير) وهو أعلى جبل في جزيرة البحرين وأرخبيلها ويقع على بعد نحو ١٣ ميلاً جنوبي مدينة المنامة . ويتكون من الحجر الجيري . ويسمى بجبل الدخان لأن الصورة التي تبدو للشخص وهو ينظر إلى هذا الجبل حين يكون الجو حاراً مع رطوبة عالية

خاصة في الصيف تبدو صورة الجبل وكأنه مجرد ضباب أشبه بالدخان . وارتفاع هذا الجبل يتراوح بين ١٢٢ و١٤٠ متراً . ويقع عند هذا الجبل مخيم فريق الحفر الأول للنفط الذي بدأ في ١٦ أكتوبر ١٩٣١م، وتدفق الزيت في غرة شهر يونيو ١٩٣٢م . الوثيقة، العدد ٤٦، يوليو ٢٠٠٤م، ص٨٩ .

القصاصير :

ومفردها (قصار) وهي الجزيرة الجبلية الصغيرة والتي لا يوجد بها سكن . ويقع بالقرب من جزيرة المحرق قصار (السايه) من جهة الغرب . ويوجد به ينبوع عذب وكان العوام يعتقدون في القديم أن بها وطية قدم (الخضر) في جبلها وكان الناس يتبركون بها . وقد زالت هذه الخرافات تدريجاً .

١٣ – التضاريس :

وسطح البحرين منخفض . يصل ارتفاعه الأقصى إلى ١٣٤ متراً باستثناء شريط الساحل الشمالي والشمالي الغربي الضيق من الأرض الخصبة . فإن أغلب جزيرة البحرين عبارة عن أرض صخرية جيرية تغطيها كثبان من الرمال الجافة والمالحة التي لا تساعد على نمو المزروعات الطبيعية باستثناء بعض النباتات البرية . أنظر : المجموعة الإحصائية من ١٩٨٥ – ١٩٩٩م . ص٣ .

النخيل في البحرين :

وجدت آثار النخيل تعود إلى فترة أوائل الألف الرابع قبل الميلاد . إذ كانت النخلة مقدسة عند كثير من الأمم وذلك لأهميتها الاقتصادية والعيشية، فمن النخلة الطعام والوقود من سعفها وجذوعها . ويصنع منها البعض الحاجات النزلية . ويسقف بجذوعها . ويصنع من جريدها بعض الأسرة والكراسي . ومن سعفها حاجات منزلية أخرى . كما يستخرج من تمرها الدبس . وينام الفلاح والبدوي تحت ظلها فهي زاد المسافر ويصنع الخبيص من التمر والسمن . ولجمالها واستقامة جذعها روعة ونظـرة . وقال عليـه الصلاة والسلام : "أكرموا عمتكم النخلة" .

والبحرين بلد المليون نخلة ولكن زحف العمران عليها . وتدهور الوضع المائي في البلاد وزادت ملوحة الماء في التربة واستخدام العمالة الوافدة غير المدربة لزراعة النخيل كل هذا وغيره أدى إلى تدهور زراعة النخيل مما تثبته الإحصائيات الرسمية . ومن أصناف النخيل التي تعد بالعشرات ومنها : (الغرة، الخلاص، والخنيزي، والشيشي، والستراوي، والحاتمي، والرزيز، والمرزبان، والبريمي، والبرحي، والهلالي) وغيرها .

١٤ – جاء في التحفة النبهانية (سيبخت) مرزبان هجر أي أميرها . ويروى أنه لما ذهب إلى المدينة المنورة وأعلن إسلامه في خلافة أبي بكر (رض) صحب معه منها فسيل نخل تبركاً بصاحبها

وأتى به وغرسه في جزيرة البحرين ونسب ذلك النخل له فسمي (نخيل المرزبان) وهو من أجود تمور البحرين حتى الوقت الحاضر .

١٥ – وفي قول : كناقل التمر إلى هجر . ولم ترد هذه الجملة في الطبعة الثانية كذلك بل وردت : كناقل التمر إلى أوال .

١٦ – واهتم شيوخ وبعض أهل البحرين بالخيل ومنهم سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة فقد اهتم منذ شبابه (بالرماية والقنص وركوب الخيل)، ونمت تلك الهوايات حتى أصبح لديه مجموعة من الخيول العربية الأصيلة النادرة . وإن اهتمام صاحب السمو بالخيل وركوبها يمليه عليه اهتمام آبائه وأجداده بها، وفي الأثر (علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل) خاصة وأن البحرين قد اشتهرت بخيلها عبر التاريخ الحديث سواء في التجارة مع الهند والدولة العثمانية والدول الأوروبية وموانئ الخليج العربي أو الهدايا . فقد كان شيوخ البحرين يتهادون الخيول مع حكام الإمارات والدول العربية والأجنبية، فقد أهدى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة إلى (الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود) فرس (دهمه) فتناسلت وأرسل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (دهمه) إلى الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة ومعها رسالة مؤرخة في ١٩٣٦م جاء فيها : أن هذه (الدهمه) درجت علينا من والد الجميع الشيخ عيسى بن علي آل خليفة إلى المرحوم عبد الرحمن بن فيصل . وهذه بنتها واصلتكم وأبوها (الحمداني) نرجو قبولها . وقد شكره الشيخ حمد بن عيسى بن علي على هديته .

وأهدى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة فرسين إلى السيد تركي إمام سلطنة عمان وذلك في عام ١٨٧٢م.

وأهدى شيخ البحرين في ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م إلى أفندينا في مصر : حصاناً أصفر مرشوشاً (صقلاوي) يسمى حصان آل خليفة. وحصان أشقر محجل وأشقر طوسان أبو طره في وجهه وأشهب عبيان .

كما أرسل الشيخ عيسى بن علي آل خليفة (دهمه) هدية منه إلى مصر وكانت تسمى (بنت البحرين) فتكاثرت وبقي يطلق على نسلها (بنت البحرين) إلى الوقت الحاضر. أنظر وثيقة في دفتر مسائل مهمة لغة ٦ رقم ١٧٩٨ (يمن) ضمن رسالة من عبد الله بن ثنيان إلى أفندينا في مصر .

وتلقى الشيخ عيسى بن علي في ١٨٩٩م هدية من إبراهيم أفندي الدير العثماني وهي فرس (كحيلات) العجوز الشقراء وورد في رسالة أنها حمراء وهي واردة له من (يوسف إبراهيم) وأبوها (دهيمان) حصان (فهد السعدون) واستطرد الدير العثماني إبراهيم أفندي في رسالته المؤرخة في ٢٧ صفر عام ١٣٢٨هـ بقوله : وأريدها من مركبات الشيوخ . وإني أرغب أن أقدمها لمن يستحق ركوبها وهو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الذي أجابه بالشكر .

وأهدى الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة إلى الأمير (فهد بن عبد الله بن جلوي) ثلاثة خيول في عام ١٩٢٨م كما أهدى إلى الملك فؤاد ملك مصر فرسين من أنثى الخيل .
وفي ١٩٣٧م أهدى الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة إلى الأمير سعود (جلابي) منقط .
وأهدى الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة إلى الملك عبد العزيز آل سعود في ١٩٣٩م لدى زيارته للبحرين ٢٥ رأساً من الخيل منها ٢٤ فرساً وحصان (جلابي) أصفر .
وفي نفس العام أهدى الملك عبد العزيز مهره (صقلاوية) إلى الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة والتي أصبحت فرساً خاصة إلى (شارلس بلجريف) مستشار الحكومة وسماها (أوليانذر) بسبب جمالها ولونها الكستنائي المائل للاحمرار .
وفي عام ١٩٥٢م أهدى سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة إلى الملكة إليزابث فرس (ملولش) بمناسبة حفل تتويجها وتلقى رسالة شكر منها .
أما صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى بن سلمان آل خليفة فقد اهتم بالاصطبل الأميري فأسسه ووسعه على المستوى الدولي . ومن عظيم اهتمامه بالخيل وإحيائه تراث البحرين في الفروسية أن انضمت البحرين إلى مؤسسة الخيول العربية وهي مؤسسة عالمية أنشئت لحماية السلالة العربية عام ١٩٦٧م، ثم تأسست كمنظمة سنة ١٩٧٠م فانضمت إليها البحرين سنة ١٩٧٦م إذ قدمت سجلات أنساب للخيول العربية في البحرين وكانت ولا تزال البحرين عضواً نشيطاً في هذه المنظمة .
ومن خيول صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة (طويسان) الذي قدمه سموه إلى الدوقة نولي ماريه في عام ١٩٦٨م و (صقلاوية)قدمه إلى المستر ماي عام ١٩٧١م .
أنظر الاصطبل الأميري، دانة، ص٢١، طبع في البحرين ١٩٨٠م/ تقرير من المعتمد السياسي في البحرين في ٢٤ فبراير ١٩٧٢م إل.بي.إس/٥/٢٧٠/ص٢٥٤ .
ومن جياد صاحب السمو (دهمه) اسمها (رفأ) بنت دهمه التي بعثها الملك عبد العزيز إلى الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وابنتها أهديت من شيخ البحرين إلى الشيخ أحمد الجابر الصباح .
ومن خيول سموه (معنقي) الصغير والكبير الأسمر وجلابي وسميه .
رواية عن حسن بن صالح الرويعي . وانظر : مسيرة الخير والعطاء في البحرين للدكتور علي أباحسين، طبع البحرين ١٩٩٣م ص٢٩-٣٢ .

١٧ – وللشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة، الذي حكم من ١٩٣٢م إلى ١٩٤٢م، كلبة سلوقية تسمى (حوشه) . وكان لها خادم يعتني بطعامها ونظافتها . ولما توفى الشيخ حمد خرجت إلى المقبرة وعاد المشيعون ولكنها بقيت حزينة على فراقه ثم وجدوها عند قبره وهي تقوم بحفر القبر فنقلوها إلى القصر ثم أهدوها إلى بلجريف ولكنها عادت إلى القبر مرة أخرى فما كان من بلجريف إلا أن نقلها إلى بلاده .

نحو تأسيس قاعدة بيان

تمثل التغيرات العديدة التي تمر بها دول الخليج العربية منذ اكتشاف البترول في المنطقة تهديدا كبيرا لإرث المنطقة الحضاري، وخاصة مع تغير النمط المعيشي لأبناء المنطقة . لذا فإن هذه الدراسة تمثل اقتراحا للرفع من مستوى الاستفادة من السجلات المصورة المحفوظة لدى المؤسسات والمراكز البحثية، من خلال الاستفادة من التقنيات العلمية المتقدمة في مجال الحاسب الآلي .

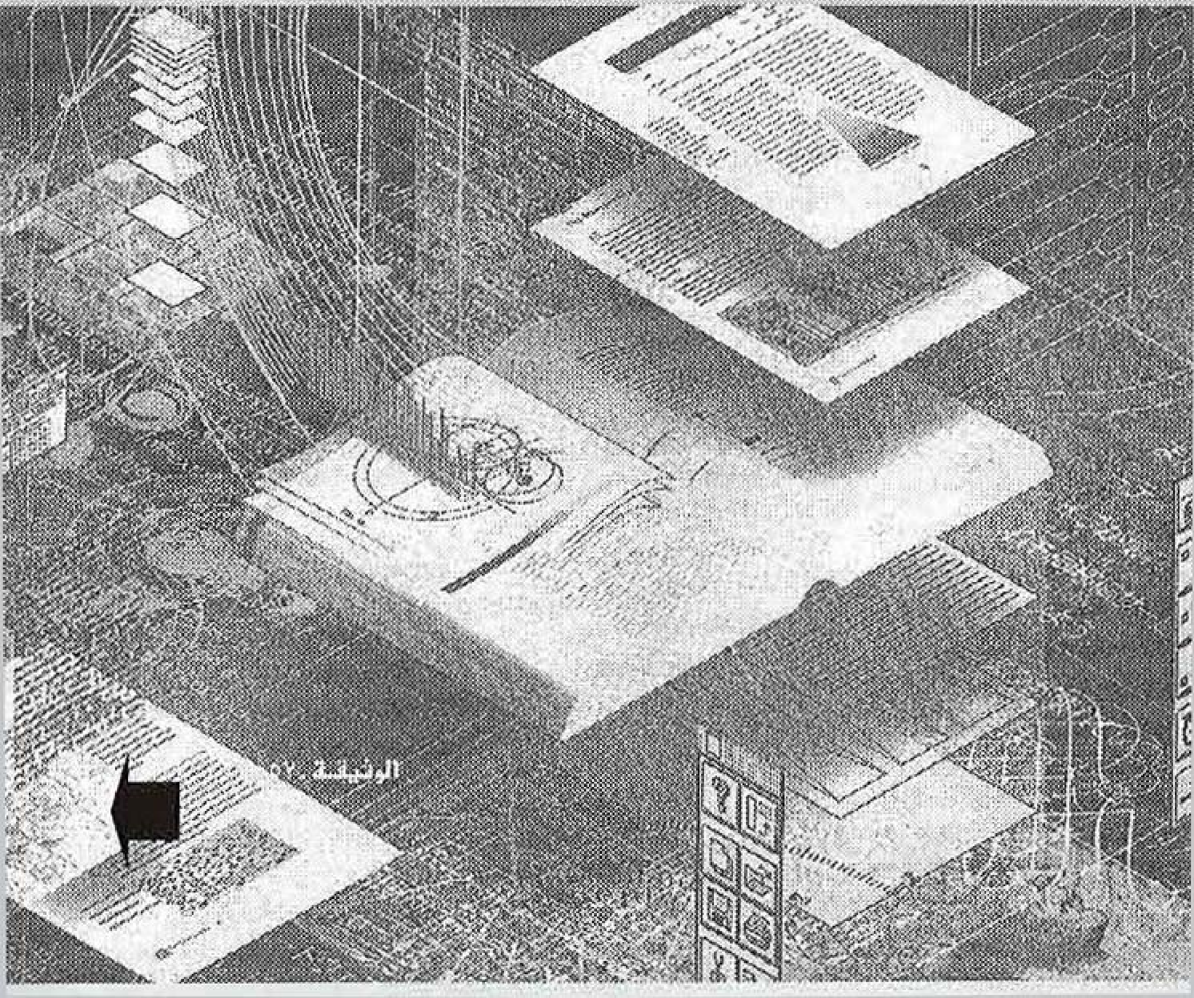
التراث الشعبي الخليجي والمتغيرات

لقد شهدت دول الخليج العربية في العقود القليلة الماضية العديد من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ظهرت نتيجة لحدوث تغير كبير في طبيعة المرتكزات الاقتصادية التي تعيش عليها مجتمعات المنطقة . بعد أن كانت أنشطة الرعي والزراعة والتجارة وصيد الأسماك واللؤلؤ تمثل العمود الفقري لاقتصادها، وساهمت بدرجات متفاوتة في ظهور ثقافة خليجية ذات طابع خاص ومتميز .

...سات "الفنو-فوتوغرافية"

...دول الخليج العربية

بقلم : الدكتور عبد الله بن محمد الشارخ(١)



إضافة لما سبق، فقد كان للظروف البيئية دورها الملحوظ في تشكيل التراث الخليجي من ناحية، وتأقلم تلك المجتمعات مع الكوارث والمحن الطبيعية التي تلقي بظلالها عليها مثل المجاعات والأمراض والسيول الجارفة والحروب .

ومع اكتشاف وجود البترول بكميات تجارية في المنطقة، دأبت الحكومات الخليجية على التعجيل برفع المستوى الاقتصادي وتوفير الخدمات الأساسية لشعوبها، فعبدت الطرق، وافتتحت المصانع، فازدهرت الحركة التجارية داخلياً وخارجياً، وافتتحت المدارس والمعاهد العلمية وأنشأت المطارات والموانئ لتيسير السفر والنقل وعمل الكثيرون من أبناء المنطقة بالوظائف الحكومية والأعمال التجارية، وقد ترتب على حدوث هذا التغير الكبير في المجتمعات الخليجية في فترة زمنية وجيزة ظاهرة إيجابية وأخرى سلبية ؛ تمثلت في هجر أبناء المنطقة للعديد من العادات والتقاليد التي تصور حياتهم الماضية كرد فعل مباشر للتغير "الإيجابي" في ظروفهم المعيشية .

وبقدر ما ظل الجيل الذي عايش الظروف الاقتصادية السابقة متمسكاً بشدة بكل ما يربطه بالماضي من حيث النمط المعيشي والعادات والتقاليد . . .الخ، فإن الجيل الفتي، الذي ظهر بعد ذلك، لم يجد صعوبة ولا غضاضة في مواكبة التغيرات المتعددة التي يمر بها المجتمع والاستفادة بكل ما هو حديث وعملي في أمور الحياة اليومية .

لقد ظهر عدد من المخاطر التي باتت تهدد بزوال التراث الشعبي الخليجي نحو التأثر بالثقافات الأجنبية ودخول التقنيات الحديثة في المجالات الزراعية والصناعية والاقتصادية، وتغير نمط العيش، مما قلل الوعي بأهمية التراث الشعبي عند الأجيال المتأخرة . . .الخ .

وبالرغم من تمسك بعض أبناء المنطقة بتراثهم ومناداتهم بعدم هجره أو إغفاله، فإن التوجه العام للمجتمعات الخليجية ظل مندفعاً نحو الاستفادة من المنتجات والمصنوعات الأجنبية الأكثر عملية وسهولة في الاستخدام ؛ كما هجر المزارع مزرعته وتخلص الراعي من حيواناته وانتقل ساكن القرية إلى المدينة طمعاً في عيش أفضل ومخلفاً وراءه بيته دون ما رعاية أو عناية .

وبعد أن تقمصت المجتمعات الخليجية أثواب العصر، إن صح التعبير، وتكشفت لها الآثار السلبية الناتجة عن اكتساب كل موروث غريب عليها، أخذت النداءات تتعالى وتتوالى في الحث على أهمية التراث وبأنه جزء لا يتجزأ من شخصية هذه المجتمعات

(جمعية النخيل للفنون الشعبية ١٩٩٦: ٧) ؛ فشمرت المؤسسات والمراكز المهتمة بالتراث والتاريخ عن ساعديها، وعقدت الندوات والمؤتمرات والمعارض التي تظهر عظمة تراثنا على المستويين المحلي والخليجي ؛ فلا تمر أيام معدودة إلا وتسمع عن نشاط اجتماعي أو تعليمي ذي علاقة بتراث المنطقة وتاريخها العريق .

لقد صنف بعض الباحثين التراث الشعبي إلى أربعة أقسام رئيسية (سعد الدين ١٩٨٦ : ١٣٣-١٣٤)، تتمثل فيما يلي :

١ - الحياة الشعبية المادية، أو الثقافة المادية ؛ وتتضمن الطرز والتصاميم المعمارية، والأثاث، والملابس، والطعام، والزراعة والصيد، والأدوات المنزلية، والصناعات اليدوية .

٢ - العادات والتقاليد، التي ترتبط بالجوانب المعيشية والاجتماعية للمجتمع مثل الشعائر المتعارف عليها في مناسبات الولادة، والزواج، والوفاة، والأعياد، والحج، والحروب، والمعاهدات وغيرها، وكذلك في ممارسات اجتماعية أخرى مثل الطب الشعبي والسحر .

٣ - الفنون الشعبية، مثل الأغاني والأهازيج والرقصات الشعبية والألعاب . . وغيرها .

٤ - الأدب الشعبي أو الشفهي، الذي يتمثل في القصص، والحكايات، والأساطير، والألفاظ، واللهجات، والشعر بأنواعه .

وهناك تصنيفات أكثر عموماً تقسم التراث الشعبي إلى قسمين رئيسيين هما :

١ - التراث المادي، الذي يشمل كل أنماط المهن والصناعات، بحسب البيئات الجغرافية والمفاهيم الاجتماعية السائدة .

٢ - التراث المعنوي، ويشمل العادات والتقاليد في المناسبات الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والحربية . . . وغيرها (جمعية النخيل للفنون الشعبية ١٩٩٦ : ١١-١٢) .

لقد تجسدت الجهود المبذولة للحفاظ على التراث الخليجي في أوجه عديدة ومتفرقة، من أبرزها الحفاظ على أنماط العمارة التقليدية، وجمع الإرث المادي بأنواعه[٢]، وكذلك جمع الكتب والمخطوطات وتوثيق العادات والتقاليد والمعتقدات لشعوب المنطقة في الماضي . وقد سعى الباحثون المتخصصون في منطقة الخليج عموماً إلى "إلقاء الضوء على المراحل التاريخية السابقة من حياة الثقافة والمجتمع . . . واستخدام

مواد التراث الشعبي والحياة الشعبية في إعادة بناء الفترات التاريخية الغابرة Historical Reconstruction، وكذلك في التعرف على علاقات التأثير والتأثر بالثقافات الأخرى المعاصرة (الجوهري ١٩٨١ : ٣١-٣٥) .

إن لدراسات التراث الشعبي دوراً كبيراً في التعرف على التغيرات والتطورات المعيشية المختلفة التي مرت بها مجتمعات المنطقة، وكيفية تأقلمها مع الظروف البيئية المختلفة . ومن ناحية ثانية، فإن لهذه الدراسات دوراً كبيراً في إثبات الانتماء الوطني لأبناء المنطقة بتوكيد الانتماء للجذور، وإبراز الخصوصية والعراقة التي يتحلون بها في جميع أوجه الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية .

ولقد كان للمؤسسات الحكومية والجامعات، ومراكز الدراسات والبحوث والجمعيات المتخصصة، دور مشرف وملموس في حفظ تراث المنطقة من العوامل البشرية والطبيعية المختلفة . تمثل دور هذه الجهات في أنشطة متعددة تشمل جمع القطع والوثائق والمخطوطات والمؤلفات التراثية، إقامة الندوات والمؤتمرات النادرة وورش العمل، تحقيق الكتب التراثية، توثيق الأحداث التاريخيـة من خلال تسجيل روايات كبار السن، إقامة متاحف التراث الشعبي، تنظيم المعارض والمهرجانات التراثية، تأليف الكتب، دعم الباحثين والمتخصصين في دراسات التراث الشعبي وتيسير سبل البحث لهم، ترجمة وطباعة الكتب الأجنبية المرتبطة بتراث المنطقة، التوعية الإعلامية من خلال أجهزة البث المرئية والمسموعة .

السجلات المصورة

ودورها في دعم دراسات التراث الشعبي :

لا يخفى على أي امرئ الدور المهم للسجلات المصورة في دعم دراسات التراث الشعبي الخليجي . ولكن دراسات التراث الشعبي قد بلغت درجة كبيرة من التشعب والتفرع، مما جعل من غير المكن لباحث بمفرده أن يجري دراسة أو بحثاً دون أن يتخصص في موضوع محدد، في منطقة جغرافية واحدة ، وذلك لوجود قدر هائل من الدراسات والأبحاث المنشورة حول التراث الشعبي .

ومن هذا المنطلق فإن هذا البحث يركز على مدى أهمية "السجلات المصورة" القديمة ودورها في دعم وتعزيز دراسات التراث الشعبي على المستويين المحلي والخليجي، خاصة وأنها تعتبر من المصادر الأولية لتوثيق التراث الشعبي (Krech III et al 1995 85) .

وتشمل السجلات المصورة[٣] القديمة الصور الفوتوغرافية، والأفلام السينمائية، والرسوم اليدوية، والتي أثبتت أهميتها العلمية في توثيق جوانب عديدة ومتنوعة من تراث المنطقة .

ويقول واينستين في تعريفه للصور التاريخية ما يلي :

"A historical photograph, offering a believable image of fine past, is any photograph capable of supporting the study or the interpretation of history . . . the moment after it is made it becomes a visual artifact, although it is not always a historical treasure." (Weinstein et al 1977:4)

ويمكن ترجمة ما ذكر أعلاه على النحو التالي :

والصورة التاريخية التي تعطي رؤية حقيقية للماضي، هي أي صورة قادرة على المساعدة في دراسة وتفسير التاريخ . . . وفي اللحظة التي تعقب ظهورها (أي الصورة) فإنها تصبح أداة بصرية، بالرغم من أنها لن تصبح بالضرورة كنزاً تاريخياً (واينستين وآخرون ١٩٧٧ : ٤) .

لذا فإن السجلات المصورة القديمة تمثل مخزوناً تراثياً لا ينضب، للاستفادة منه في دراسة جوانب متعددة من التراث الشعبي . ومن هذا المنطلق فإنه يمكن الإشارة إلى عدد من أوجه الاستفادة التي يمكن أن يحصل عليها الباحث من خلال الاستعانة بالسجلات المصورة ومنها :

١ – إعطاء صورة واقعية عن جوانب مهمة من الحياة المعيشية في الماضي، كأن تبين الصورة الفوتوغرافية مثلاً مجموعة من دكاكين الحرفيين، والباعة المتجولين، في وقت يكتظ فيه السوق بالمتسوقين وعامة الناس بإحدى المدن الصغيرة .

٢ – إمكانية تأريخ الصورة مثلاً من خلال نقش تأسيسي مؤرخ على جدار أحد الحصون .

٣ – دور السجلات المصورة في إعادة البناء والترميم للمباني القديمة أو أجزاء منها، خاصة وأن بعض هذه المباني قد لا يكون موجوداً على الإطلاق (الخليفي ١٩٩٠ : ١٩٦)[٤] .

٤ – تساعد السجلات المصورة الوفيرة عن منطقة ما على معرفة التغيرات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التي مر بها هذا المجتمع في حقب زمنية عدة، كحدوث تغير في اللباس مثلاً والعوامل التي أدت إلى ذلك . وقد استدل العبودي (١٩٨٧ : ٧٣) على أن أقدم استخدام معروف للبس (الشطفة) أو ما يعرف باسم (العقال المقصّب) يرجع لعهد الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان (١٨٥٥ – ١٩٠٩م) من خلال دراسة مجموعة من الرسومات اليدوية القديمة .

٥ – تعدد المواضيع والجوانب التي تغطيها السجلات المصورة، بحيث تشتمل على معلومات عن العمارة والحرف اليدوية والصناعة والتجارة والأزياء . . . الخ، مما يتيح للمتخصصين تكوين صورة متكاملة حول بعض الجوانب المجهولة في ذلك المجتمع .

٦ – إمكانية استخدام السجلات المصورة في الأغراض التعليمية والتثقيفية والتوعوية للإفادة مما كانت عليه مجتمعات المنطقة في الماضي ؛ ومن الأمثلة المشهورة التي تصور التغيرات المناخية التي حدثت في الماضي صورة باللونين الأبيض والأسود لعدد من المعتمرين وهم يؤدون الطواف سباحة حول الكعبة أوائل القرن الهجري الماضي .

٧ – توثيق أحداث تاريخية أو اجتماعية أو سياسية تمثل نقطة تحول في حياة ذلك المجتمع، كتصوير معركة حربية أو اتفاقية سياسية .

٨ – التعرف على الأشخاص الذين قاموا بالتقاط الصور أو رسم اللوحات الفنية، وذلك لربط هذه الأعمال مع المصادر التاريخية الأخرى مثل الوثائق والروايات الشفهية ؛ كما أنه يمكن إجراء دراسات مقارنة بين السجلات المصورة ذاتها .

٩ – تصحيح بعض الأخطاء التي يوردها بعض الرحالة الأجانب في كتبهم عند حديثهم عن المجتمعات التي زاروها في الماضي، وبخاصة أن بعضهم قد لا يعرف الاسم الصحيح للباس المستخدم من قبل السكان المحليين (العبودي ١٩٨٧ : ٥٩) . وفي حالة ما إذا كانت المعلومة الصحيحة غير متوفرة فإنه من الصعب الاعتراض على

مشاهدات شخص عاصر تلك المجتمعات إلا في حالة وجود أدلة مصورة تبين عدم صحة ما ذكر .

قاعدة البيانات الإثنو-فوتوغرافية

إن قيمة السجلات المصورة بأنواعها، السابق ذكرها، قد لا يحددها مدى ندرة هذه الصور والرسومات والأفلام، بل يعتمد الأمر في الغالب على مدى إمكانية وصول الباحث إليها واختيار الصور التي تناسبه بكل سهولة ويسر . وقد دأب المتخصصون في مجالات عدة على وضع أرشيفات علمية لمختلف صنوف العلم والمعرفة كي تسهل على الباحثين البحث عن مبتغاهم، وإرشادهم إلى مكانه في أسرع وقت ممكن .

ولقد أثبتت التقنيات الحديثة في علم الحاسب الآلي دورها الناجح والفعال في مجال إنشاء قواعد البيانات الإلكترونية، وإمكانية تخزين كم هائل من المعلومات، التي قد تكون موجودة في أشكال مواد مطبوعة أو مسجلة أو مصورة بحجم مكتبة مدرسية، في قرص لا يتجاوز حجمه قبضة اليد .

ونظراً لوجود كمية كبيرة من السجلات المصورة القديمة في المؤسسات والمراكز والهيئات الخليجية، فإن الطرق التقليدية المتبعة أحياناً للاستفادة منها لم تعد تتواكب مع الحركة العلمية الدءوب التي تشهدها المنطقة في أوائل القرن الخامس عشر الهجري .

ومن ناحية ثانية، فإن قلة الكلفة المادية، نسبياً لشراء أجهزة الحاسب الآلي المتقدمة واستخدامها، والتي تعتبر الأكثر فعالية في مجالات التصنيف، وبناء أنظمة المعلومات، والاسترجاع الآلي للمعلومات، يجعل المجال خصباً للتفكير الجاد في الاستفادة من هذه التقنيات الحديثة لخدمة دراسات التراث الشعبي بجميع أشكالها وأنواعها (Kemper 1995 : 205) .

ولعلي قبل الاسترسال في إعطاء تفاصيل أكثر دقة حول مقترح البحث، فإنه من المناسب الإشارة إلى وجود استخدامات متعددة للحاسب الآلي في مناطق مختلفة من العالم في مجال توثيق الدراسات التراثية والتاريخية، وتدخل في ذلك الاستفادة من الصور التاريخية القديمة .

ومن أبرز الجهود المبذولة للاستفادة القصوى من الصور الفوتوغرافية واللوحات الفنية ما قامت به كل من مكتبة هلتون جيتي الفوتوغرافية (Hulton Getty) وجامعة ديمونت فورت (Demontfort) وجامعة سانت أندرزو (St Andrews) البريطانية بوضع أربع مجموعات ضخمة من الصور التاريخية واللوحات الفنية يبلغ عددها (٥٠ ألف) صورة ولوحة موثقة على شبكة الإنترنت مجاناً للاستخدام في الأغراض التعليمية من قبل المهتمين ؛ ويعرف هذا المشروع باسم (HELIX) كمختصر لمسمى (Higher Education Library Image Exchange)، وهو اختصار لاسم مكتبة التعليم العالي لتبادل المواد المصورة (Furtado 1998: 35-36) .

كما قامت بعض الجهات التربوية والتعليمية في الولايات المتحدة الأمريكية بتدعيم مناهج التاريخ المدرسية من خلال الاستفادة من تطبيقات الوسائط المتعددة على شبكة الإنترنت (أو الشبكة العنكبوتية) وتوفير مادة علمية لها علاقة بالمناهج المدرسية، مثل الحرب الأهلية الأمريكية، مدعمة بالوثائق والصور والخرائط والروايات الشفهية ؛ بحيث يتمكن الطلبة من توسيع حلقاتهم العلمية وتعميقها بطريقة ممتعة وجذابة (Dyrli 1998: 61) .

وعلى مستوى العالم العربي فقد نادى بعض الباحثين بالحاجة الماسة إلى إنشاء أرشيف فولكلوري يعنى بحفظ المواد والمعلومات والصور والتسجيلات الصوتية التي تجمع لأغراض علمية، بحيث يمكن الاستفادة منها من قبل الباحثين والمختصين في أبحاثهم العلمية (الجوهري ١٩٨١ : ٧٧٩-٧٨٠ ؛ حواس ١٩٦٥) .

وعلى المستوى الخليجي عموماً، فقد تفاوتت الجهود المبذولة للاستفادة من السجلات المصورة القديمة، حيث كثفت العديد من المكتبات والجامعات ومراكز البحوث جهودها في جمع كميات كبيرة من الصور والرسوم اليدوية والأفلام التسجيلية التي تخص منطقة الخليج العربية وإقامة معارض الصور والرسومات الفنية القديمة وإصدار الكتب المصورة .

ومن خلال بحثي المتواضع في الجهود المبذولة في حفظ السجلات المصورة بأنواعها وتوثيقها على مستوى المملكة خصوصاً، فقد برزت جهود ملموسة لعدد من الجهات الحكومية والخاصة، والتي منها مكتبة الملك فهد الوطنية، دارة الملك عبد العزيز العامة، مؤسسة الملك فيصل الخيرية، شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو)، مؤسسة التراث، مؤسسة الدائرة . . .وغيرها .

ولعلي لا أبالغ في القول إن ذكرت بأن جهود مكتبة الملك فهد الوطنية تعتبر الأبرز على مستوى المملكة، حيث أن جهودها لم تقتصر على جمع الصور الفوتوغرافية فحسب بل بدأت بمشروع طموح يهدف إلى إنشاء أرشيف وطني للصور التاريخية[٥] (مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٩ : ٦٠-٦٧)، كما قامت المكتبة بإصدار كتاب "كشاف الصور التاريخية للمملكة العربية السعودية" والذي يشمل الصور التاريخية الموجودة في الكتب والدوريات العربية والأجنبية التي تمتلكها المكتبة (إدارة التكشيف والببليوجرافية الوطنية ١٤١٩ :٨) .

ومن خلال الاستعراض السابق لما هو عليه الحال فيما يتعلق بمدى التباين في الجهود بين المؤسسات والجهات المهتمة بتوثيق دراسات التراث والتاريخ في المملكة، والذي قد يمثل عينة لما هو عليه الوضع في دول الخليج العربية عموماً، يتضح للمرء أن هناك حاجة ملحة لتوحيد الجهود المبذولة لخدمة دراسات التراث الشعبي في دول الخليج العربية .

ولهذا الغرض فإنني أقترح تأسيس قاعدة بيانات "إثنو-فوتوغرافية"[٦] لدول الخليج العربية من قبل المراكز والمؤسسات البحثية الخليجية، تركز على توثيق دراسات التراث الشعبي في دول الخليج العربية وتأصيلها من خلال حفظ السجلات المصورة القديمة بأنواعها وتخزينها باستخدام تقنيات التخزين الرقمية (Digital Storage) مثل الأقراص المدمجة (CD ROM) والوسائط المتعددة (Multi Media) في مجال الحاسب الآلي .

ولعل من أبرز الأهداف المرجوة من قاعدة البيانات الإثنو-فوتوغرافية الخليجية (الموحدة) ما يلي :

١ — توحيد جهود الجهات المهتمة بدراسات التراث الشعبي والتاريخ في كل ما يتعلق بجمع المادة العلمية اللازمة لإنشاء قاعدة البيانات المذكورة .

٢ — وضع تصنيف خليجي موحد للسجلات المصورة التي تحويها قاعدة البيانات المقترحة ؛ أنظر (Parezo et al 1995: 170)، لتحاشي السلبيات التي قد تنتج عن الاندماج المتأخر في مثل هذا المشروع المشترك بين دول الخليج العربية .

٣ — دعم الدراسات البحثية المعتمدة على تحليل وتفسير السجلات المصورة من خلال إقامة الندوات والمؤتمرات الدورية ونشر الأبحاث والإصدارات ذات العلاقة .

٤ — تشجيع الباحثين على الاستفادة من قاعدة البيانات، وتدعيم أبحاثهم بالأدلة العلمية التي توفرها لهم السجلات المصورة، حيث تزيد من نسبة الباحثين الذين يدعمون دراساتهم بالصور والرسومات التاريخية القديمة .

الإطار النظري لقاعدة البيانات الإثنو-فوتوغرافية

إن إنشاء قاعدة البيانات الإثنو-فوتوغرافية (Ethno-photographic Data Base) المقترحة يتطلب الإحاطة بالجوانب التقنية والعلمية من قبل الجهات والمراكز البحثية ذات العلاقة في دول الخليج العربية .

وأما الجوانب التقنية فتشمل مجموع الأجهزة والبرامج المستخدمة في هذا المشروع، وأيضاً طرق التشغيل والتخزين والاسترجاع الآلي، وكذلك المواصفات التقنية التي ينبغي أن تكون عليها هذه الوحدات، حتى تكون سريعة وعملية في تيسير مهمة مستخدم[٧] القاعدة البيانية .

وفيما يتعلق بالجانب المنهجي في إعداد قاعدة البيانات المقترحة فإن هناك طريقتين[٨] من طرق العرض الآلي التي يستفيد منه الباحثون :

أولاً : السجلات المصورة المفردة :

ويقصد بها مجموع الصور والأفلام والخرائط . . .الخ، التي يتم عرضها عبر جهاز الحاسب الآلي على المستخدم بحسب نظام التصنيف المتبع، مثلاً حسب الموضوع والمصور والموقع الجغرافي . . . الخ . وهذه الطريقة توجب على الجهة، أو الجهات، المنفذة لهذا المشروع اتخاذ مجموعة من الخطوات لضمان تقديم المستوى المتميز من الخدمات المرجعية، وهي على النحو التالي :

١ — جمع السجلات المصورة ذات العلاقة بقاعدة البيانات من مصادرها الأصلية .

٢ — إجراء المعالجة الفنية اللازمة للسجلات المصورة، إذا اقتضت الحاجة .

٣ — توثيق الصور والرسوم وحصر كل المعلومات الممكن الحصول عليها عن كل صورة ولوحة فنية وفيلم سينمائي .

٤ – تصنيف وتبويب جميع السجلات المصورة المخزنة بقاعدة البيانات .

٥ – وصف السجلات المصورة التي تم تخزينها في قاعدة البيانات .

٦ – حفظ النسخ الأصلية للسجلات المصورة في مكان آمن وملائم .

ثانياً : الملفات المصورة المتخصصة :

يقصد بالملفات المصورة المتخصصة مجموع السجلات المصورة المرتبطة بموضوع محدد، كالغوص على سبيل المثال، بحيث يتم جمع كل ما يخص هذا الموضوع من صور ورسومات يدوية ومواد تسجيلية، مرئية ومسموعة، ووثائق ومخطوطات ؛ كما يزود الملف المصور بشروحات علمية حول الموضوع المنتقى، إضافة إلى الوصف والشروحات التي يمكن أن يتحصل عليها الباحث عن الصورة أو اللوحة الفنية .

كما يمكن إعداد ملفات متخصصة عن فترات زمنية محددة، ١٣٢٠-١٣٣٠هـ مثلاً، أو منطقة جغرافية أو شخصية سياسية .

ولعلي هنا أشير إلى الدراسة المتميزة التي قامت بها عالمة الآثار الألمانية والمتخصصة بعلم الأعراق البشرية (Ethnology) الدكتورة أنجرت نيبا (Annegret Nippa)، مديرة متحف علم الشعوب بمدينة (دريزدن) بألمانيا، التي قامت بدراسة نحو ٢٠٠٠ صورة فوتوغرافية[٩] التقطها الرحالة الألماني المشهور هيرمان بوركهارد (Herman Burkhardt) أثناء تنقلاته في بلدان الشرق الأدنى . وقد تمكنت الباحثة المذكورة من أن تتوصل إلى اكتشافات مذهلة من خلال دراستها لمجموعات الصور التي بحوزتها ؛ من هذه الاكتشافات إثبات أن القبائل التركمانية كانت تسكن منطقة بعلبك بلبنان في سنة ١٩٠٠ م ؛ وهذا مما لم يكن معروفاً من قبل .وقد توجت عالمة الآثار الألمانية جهودها البحثية في إصدار مجلد واحد عن منطقة بعلبك بلبنان بعنوان "قراءة في صور فوتوغرافية قديمة من بعلبك"، كما أقامت معرضاً لصور بوركهارد التي درستها في عدد من المدن الألمانية (شايان ١٩٩٧ : ٣٤-٣٥) .

الخلاصة والتوصيات

إن ما تم اقتراحه في ثنايا هذه الدراسة، من ضرورة إعطاء السجلات المصورة قدراً أكبر من الاهتمام والعناية مرده القصور الواضح في مدى الاستفادة من هذه المصادر الأولية لدراسة التراث الشعبي في دول الخليج العربية وذلك من ناحية . ومن ناحية أخرى، فإن المؤسسات والمراكز البحثية في دول الخليج العربية هي الأخرى تتحمل تبعات القصور الناتج من عدم تشجيع الباحثين والمتخصصين للاستفادة من مجموعات الصور والأفلام والرسوم اليدوية . . . وغيرها، نظراً لأن هذه المصادر الأولية بقيت مهملة لفترة من الزمن دون أن تبذل جهود كافية للاهتمام بها .

ومما ساهم في عدم تمكن الباحثين الخليجيين من الاستفادة من السجلات المصورة الموجودة لدى المؤسسات والمراكز الخليجية المتخصصة، عدم وجود صيغة عملية مشتركة لمناقشة الإشكاليات البحثية والتطبيقية بين الجهات المهتمة بدراسات التراث الشعبي في دول الخليج العربية . وكما يذكر سيلفرمان :

"For Anthropology, the unpublished records of the past are of more than historical interest; they are more than resources for the study of the history of the discipline. They constitute the primary data of all research-data that are unique and unrecoverable. Where they contain information on excavated or destroyed sites, societies that have been fundamentally changed, or cultural products that no longer exist, they represent a thin thread of linkage to knowledge that will otherwise be lost."

(Silverman 1995: 1)

ويمكن ترجمة ما ذكر أعلاه كما يلي :

بالنسبة لعلم الأنثروبولوجيا، فإن أهمية سجلات الماضي غير المنشورة تتجاوز القيمة التاريخية ؛ فهي أكثر من كونها مصادر لدراسة تاريخ العلم . إنها تمثل المصدر الأول

للبحث — فهي مادة نادرة ولا يمكن تعويضها . وحين تحتوي على معلومات عن مواقع نقبت أو دمرت، أو مجتمعات تغيرت بصورة كبيرة أو بقايا مادية لم يعد لها وجود، فإنها تمثل خيطاً رفيعاً من المعرفة كانت ستضيع لولاها .

لذا فإنني آمل من الجهات والمراكز الخليجية المهتمة بالرفع من مستوى دراسات التراث الشعبي أن تعمل على تنسيق جهودها في برامجها البحثية، كي تتمكن من تحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها، والاستفادة من مواردها المالية وطاقاتها البشرية على أفضل وجه ممكن .

ومن هذا المنطلق، فإنني آمل أن تتم دراسة المقترح المقدم في هذه الورقة، بتأسيس قاعدة بيانات إثنو-فوتوغرافية لدول الخليج العربية تضم كل ما يخص السجلات المصورة القديمة لهذه الدول .

إضافة إلى ذلك، فإنه ليس من المستبعد أن تكون هناك بعض الصعوبات التقنية التي يمكن أن تظهر عند إنشاء قاعدة البيانات الإثنو-فوتوغرافية، نظراً للتنوع الهائل في المادة العلمية المراد تخزينها آلياً ؛ وبخاصة أن هناك ضرورة ملحة للعمل على الرفع من مستوى الحفظ والتخزين والصيانة للأنواع المختلفة من السجلات المصورة، والتي عادة ما تحتاج إلى عناية خاصة للحفاظ على قيمتها العلمية (Golla 1995: 157) .

ونظراً للدور العملي الذي تيسره تقنيات الحاسب الآلي الحديثة في مجال دراسات التراث الشعبي، فإن هناك العديد من البرامج(١٠) التي تمكن الباحث المتعمق من استنطاق هذه الأدلة العلمية النادرة بشكل يتجاوز حدود التعرف على المعالم الموجودة بالصورة أو اللوحة الفنية مثلاً .

ولعل من البديهي القول بضرورة التعرف على تجارب المراكز العالمية المهتمة بدراسة التراث الشعبي، وكذلك دعوة بعض المختصين في مجال الحاسب الآلي للتعرف على الصعوبات التطبيقية التي ينبغي الإحاطة بها لمعرفة كيفية تذليلها .

د. عبد الله بن محمد الشارخ

أستاذ آثار ما قبل التاريخ المساعد بقسم الآثار والمتاحف

كلية الآداب — جامعة الملك سعود — الرياض

المملكة العربية السعودية

الهوامش

١ – أستاذ آثار ما قبل التاريخ بقسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢ – يشمل الإرث المادي الأدوات التي تستخدم في أمور الحياة اليومية في المنزل والمتجر والمزرعة والمصنع . . . الخ، وكل ما ينتج من استخدامها .

٣ – استخدمت عبارة السجلات المصورة كمصطلح شامل لأنماط مختلفة من طرق التوثيق المصور، ويدخل في ذلك الخرائط والصور المطبوعة على القماش مثلاً وأعمال النسيج التصويرية، إن وجدت .

٤ – يعرض المؤلف عدداً من الصور لمبانٍ قديمة لم تعد موجودة في وقتنا الحاضر،

.

٥ – تقوم مؤسسة التراث بالبحث عن الصور التاريخية من داخل المملكة وخارجها لصالح مشروع الأرشيف الوطني .

٦ – يشتمل هذا المصطلح على كلمتين رئيسيتين هما : "أثنو" و"فوتوغرافية" ؛ حيث أن الشق الأول مشتق من كلمة أثنوغرافيا (Ethnography) علم دراسة ثقافات الشعوب المعاصرة، ويمكن إضافة الإثنوأركيولوجيا (Ethnoarchaeology) وهو منهج علمي يعنى بفهم الآثار من خلال دراسة المجتمعات المعاصرة، والتاريخ الثقافي (Ethnohistory) وهو منهج علمي يعنى بفهم التاريخ من خلال دراسة المجتمعات المعاصرة ؛ والشق الثاني يقصد به علم التصوير الفوتوغرافي ويندرج تحت مسماه جميع أنواع التصوير الآلي والرسوم اليدوية .

٧ – يقصد بالمستخدم : الباحث الذي يستخدم قاعدة البيانات لأغراض علمية .

٨ – يمكن اعتبار هاتين الطريقتين مرحلتين من مراحل إعداد وتجهيز قاعدة البيانات، في حالة عدم توفر الكوادر الكافية .البشرية

٩ – أهديت هذه الصور لمتحف برلين لعلم الشعوب قبل ٨٠ عاماً . ولكن لم تكن معها معلومات مكتوبة حول أماكن التقاطها أو تاريخها . . . الخ .

١٠ – هناك برامج تمكن الباحث من أخذ قياسات دقيقة للظواهر المعمارية الموجودة بالصور، ومن الحصول على صور ثلاثية البعد، إضافة إلى القدرة اللامحدودة على التحكم بالصورة الثابتة أو المتحركة المراد دراستها .

المراجع العربية :

١ - جمعية النخيل للفنون الشعبية ١٩٩٦م لمحات عن تراث وفلكلور مجتمع الإمارات ط ١، منشورات المجمع الثقافي .

٢ - سعد الدين، كاظم ١٩٨٦م "تحديد أجناس الأدب الشعبي في الخليج والجزيرة العربيـة" من أبـحاث في التراث الشعبي ص ص ١٣٣-١٥٤ (كتاب التراث الشعبي ٢)، دار الشئون الثقافية العامة .

٣ - الجوهري، محمد ١٩٨١م، علم الفلكلور جـ ١ الأسس والنظرية المنهجية . ط ٤ دار المعارف .

٤ - حواس، عبد الحميد ١٩٦٥م "حاجتنا إلى أرشيف فولكلوري" الفنون الشعبية، العدد الثالث، يوليو ٣٦ - ٤١ .

٥ - الخليفي، محمد ١٩٩٠م، العمارة التقليدية في قطر، ط ١، إدارة السياحة والآثار - وزارة الإعلام والثقافة، دولة قطر .

٦ - العبودي، ناصر، ١٩٨٧م، الأزياء الشعبية الرجالية في دولة الإمارات وسلطنة عمان، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية - دولة قطر .

٧ - مكتبة الملك فهد الوطنية. ١٤١٩هـ "الأرشيف الوطني للصور التاريخية"، نشرة "أخبار المكتبة" العدد ١٧، شوال ٦٠ - ٦٧ (عدد تذكاري) .

٨ - إدارة التكشيف والببليوجرافية الوطنية، ١٤١٩هـ، كشاف الصور التاريخية للمملكة العربية السعودية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (٣٥) .

٩ - شايان، جانيت ١٩٩٨م، "ألغاز الصور من بعلبك : صور فوتوغرافية تتحدث عن الماضي"، نشرة العالم العربي الألمانية (باللغة العربية)، شهر يونيو (٦)، ٣٤-٣٥ .

ENGLISH REFERENCES:

1 - Dyrli, O. E. 1998 "Windows on the Civil War" *Technology and Learning* Vol. 18, Issue 7, p 61.

2 - Furtado, P. 1998 "Photo Archive Online" *History Today* Vol. 48, Issue 9, pp. 35-36.

3 - Golla, V. 1995 "The Records of American Indian Linguistics" In: Preserving the Anthropological Record S. Silverman and N. Parezo (eds) pp. 143-157, 2nd ed., Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research.

4 - Kemper, R. V. 1995 "The Potentials and Problems of Computers" In: Preserving the Anthropological Record S. Silverman and N. Parezo (eds) pp. 205-217, 2nd ed., Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research.

5 - Krech III, S. & Sturtevant, C. 1995 " The Uses of Ethnographic Records" In: Preserving the Anthropological Record S. Silverman and N. Parezo (eds) pp. 85-94, 2nd ed., Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research.

6 - Parezo, N. & Person, R. 1995 "Saving the Past: Guidelines for Individuals" In: Preserving the Anthropological Record S. Silverman and N. Parezo (eds) pp. 205-217, 2nd ed., Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research.

7 - Silverman, S. 1995 "Introduction" In: Preserving the Anthropological Record S. Silverman and N. Parezo (eds) pp.1-14, 2nd ed., Wenner Gren Foundation for Anthropological Research.

8 - Weinstein, R. & Booth, L. 1977 Collection, Use and Care of Historical Photographs. American Association for State and Local History.



تاريخ مشكلة الموارد المائية



في المدن الإسلامية الأولى

بقلم: الدكتور عبد الحكيم غنتاب الكعبي

كان ظهور المدن الإسلامية الأولى، البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، نتيجة من نتائج حركة الفتح العربي الإسلامي في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي . وقد تحكمت في اختيار مواقع تلك المدن وتنظيم خططها الضرورات العسكرية، لأنها كانت – أول أمرها – معسكرات بدائية للجيش العربي الفاتح، ثم تطورت في مرحلة لاحقة إلى مدن تملك الصفات الأساسية للحاضرة .

لقد كانت مسألة اختيار مواقع تلك المدن، من حيث توافر المزايا المادية وأسباب الأمان فيها موضع جدل بين المؤرخين والباحثين، بدأه ابن خلدون نقداً صارماً للعرب آنذاك لأنهم لم يراعوا في اختيار تلك المواقع المتطلبات الأساسية للحياة الحضرية، وفي مقدمتها مياه الشرب وانتهى على يد المستشرقين قناعة مفادها أن تلك المدن كانت مدناً عفوية، ولم يكن قيامها مخططاً له ولم تتهيأ لها المستلزمات الضرورية لقيام المدن .

إن هذا البحث هو دراسة تاريخية لظروف اختيار مواقع تلك المدن، وصفاتها الطبيعية والمشكلة الرئيسية التي واجهتها بعض هذه المدن، وأعني مشكلة الموارد المائية، وقد أظهرت الدراسة أن رأي كل من ابن خلدون والمستشرقين لا يمكن تعميمه على جميع تلك المدن التي أسسها العرب، بل ينطبق على بعضها. يتجلى ذلك واضحاً من خلال الموازنة بين هذه المدن من حيث صفات مواقعها وظروف نشأتها .

وقد كانت البصرة، وهي أول مدينة تؤسس في التاريخ الإسلامي (مطلع القرن الأول الهجري / السابع الميلادي)، من أكثر المدن العربية الإسلامية معاناة من مشكلة الماء، - ومازالت تعاني منها إلى يومنا هذا - ، لذلك خصتها هذه الدراسة بتفصيل أوسع لبيان العلاقة بين مسألة اختيار الموقع وظهور المشكلة، والجهود التي بذلت لمواجهتها خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة .

اعتاد الإغريق على بذل أقصى الجهود لاختيار الموقع المناسب عند التفكير في إنشاء مدينة جديدة، إذ أن ازدهار المدينة كان يتوقف على ملاءمة الموقع من الناحية الصحية، ومن حيث توافر المزايا المادية وأسباب الأمان . وكان الفلاسفة الإغريق ومخططو المدن يدرسون كل هذه العوامل بعناية دقيقة[1] .

ويعد توافر المياه شرطاً أساسياً في اختيار مواقع المدن، إذ عليه تقوم الحياة فيها . ولتوافر الماء مصادر متنوعة أهمها الأنهار الجارية باعتبارها مورداً منتظماً للمياه، وإن شرط سعة الماء الذي يرد في المصادر العربية يعني أمرين . الأول : وفرة الماء في أن يفي بحاجة السكان ويفيض مراعاة للنظرة المستقبلية والتوسع العمراني المتوقع لأية مدينة، والثاني : عذوبته، أي صلاحيته للاستخدام البشري من شرب وأغراض أخرى . فهل كان العرب في صدر الإسلام، وفي المراحل الأولى من نهضتهم الحضارية يخضعون مسألة اختيار مدنهم الجديدة لاعتبارات محددة ؟ وهل كان لشرط سعة الماء، حضور واضح في حساباتهم عند اختيارهم لمواقع تلك المدن ؟

ينفي ابن خلدون[2] ذلك، ويؤكد أن العرب في بدء تخطيطهم المدن الإسلامية لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء، ولم يراعوا مسألة توافر الماء للاستخدام البشري ولا المراعي ولا المزارع ولا الحطب، فكانت هذه المدن أسرع إلى الخراب، لأنها لم تراع فيها تلك الأمور الطبيعية، وكان ذلك إشارة إلى

تخطيط كل من البصرة والكوفة لكونهما أول مدينتين تؤسسان في الإسلام خارج جزيرة العرب .

وفي المصادر التي سبقت ابن خلدون روايات فيها إشارات إلى مثل هذا المعنى، فقد ذكر الطبري أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ قال موجهاً قادة فتح العراق عندما استأذنوه لبناء مستقرات مدنية دائمة لجندهم – الكوفة والبصرة – "العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل"(٣) وحدد لهم صفات مواقع هذه المدن، والرواية التاريخية تبين أن الخليفة في رسالته الجوابية على رسالة عتبة بن غزوان في البصرة حول حاجته إلى اتخاذ موضع دائم للمقاتلين العرب قال : "ولا تجعل بيني وبينهم – يعني العرب – بحـراً"(٤) أي أنه كان يرغب أن يكون موقع المدينة على أطراف الصحراء .

من جانب آخر، تبنت الدراسات الاستشراقية في الغالب موقفاً سلبياً من المدينة العربية الإسلامية والتمدن الإسلامي بشكل عام، فقد ظهر في القرن الماضي أدب استشراقي وفير عن المدينة الإسلامية(٥)، وكان المؤرخون من أكثر المساهمين في الدراسات الاستشراقية كماً ونوعاً، وبغض النظر عن اتجاهات تلك الدراسات ودوافعها فإنها تمحورت في الأغلب على دراسة الإشكالية الآتية :

هل كانت المدينة الإسلامية مدينة منشأة أم كانت مدينة (عفوية) ؟

وإجمالاً يمكننا القول أن تلك الدراسات قد خرجت بفكرة أساسية استندت إليها النظرية الاستشراقية بشكل عام وهي أن المدينة المنشأة تشكل استثناءً في تاريخ الإسلام، لأنه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها، وهي إن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة بل لصالح الأمير، وبذلك تكون مدينة أميرية أو مقراً للقصر وترتبط بوجود أسرة حاكمة، أي أنها تكون مؤقتة ومفتعلة بالضرورة(٦) .

وعلى الرغم من أن بحثنا هذا ليس موضوعه التمدن الإسلامي أو تخطيط المدن العربية الإسلامية بشكل عام، بل يتناول جزئية تندرج في إطار توافر المزايا المادية الأساسية في مواقع المدن الإسلامية الأولى وهي مسألة الماء، إلا أننا نرى أهمية الوقوف دون إطالة أمام رأي كل من ابن خلدون والمستشرقين من موضوع نشأة المدن الإسلامية،

وهل يتطابق هذا الرأي والخلفيات التاريخية لنشأة هذه المدن ؟ وهل يمكن تعميمه على كل المدن الإسلامية لنقر من ثم (بعفوية) هذه المدن ؟

إن المتمعن في الخلفيات التاريخية للعوامل التي ساعدت على استقرار العرب في المدن والحواضر الإسلامية المختلفة واتخاذها مواطن لاستقرارهم سيخرج دون شك بنتيجة مفادها أن هؤلاء العرب كانوا يضعون جملة مستلزمات وشروط في اختيارهم مواضع المدن، وفي التفاضل بين المواضع التي لم يتم اختيارها تبعاً للصفات الصحية والجغرافية والحضارية والاقتصادية لهذه المواقع المختارة، فلم تكن مسألة المدن العربية واختيار مواضعها من المسائل العشوائية والآنية كما اعتقد بعض الباحثين الأجانب(٧) في حقل التمدن الإسلامي . وإذا كانت المدن الإسلامية الأولى، وتحديداً كل من البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان قد اشتركت في خاصية واحدة وهي أنها كانت في أول أمرها مجرد معسكرات بدائية للجند الفاتحين فإنها تطورت في مرحلة ثانية إلى مدن تملك الصفات الأساسية للحاضرة، كما أن هذه المدن كانت تتباين في خصائصها وتخطيطها وظروف نشأتها، وأن رأي كل من ابن خلدون والمستشرقين لا ينطبق على جميع المدن التي أسسها العرب بل ينطبق على بعضها، يتجلى ذلك واضحاً من خلال الموازنة بين تلك المدن من حيث ظروف نشأتها واختيار مواقعها ولاسيما الموازنة بين البصرة والكوفة اللتين تقاربتا جغرافياً، واشتركتا عند بدء التأسيس في كثير من السمات العامة .

المدن الإسلامية الأولى وقضية الماء

إذا كان بالإمكان الإشارة إلى عفوية نسبية في أول ظهور البصرة فإن الأمر مختلف فيما يتعلق بالكوفة التي ظهرت نتيجة عمل وقرار مصمم ومرسل من لدن السلطة، إذ كانت الكوفة مركز الجيش الفاتح الذي انتصر في معارك القادسية والمدائن وجلولاء، وحسم موضوع فتح العراق، فكان لابد أن تحظى هذه المنطقة برعاية خاصة من لدن السلطة من حيث اختيار الموقع والتصميم والتخطيط اللاحق. وهذا ما حصل فعلاً. فقد تحدد مكان الكوفة بما يتسق واستراتيجية العرب في بناء المدن في صدر الإسلام، فلم

تتخذ الحيرة ولا المدائن، وهما مدينتان قديمتان مركزاً لاستقرار العرب الفاتحين، بل اختير موقع آخر للمدينة الجديدة، على مقربة من الفرات، وبذلك أمّن هذا الموقع أهم عنصر من عناصر الحياة في المدينة، وهو الماء، فضلاً عن المزايا الأخرى .

لقد كانت العلاقة وثيقة منذ بدء التأسيس بين الكوفة والماء على الرغم من أن العرب الأوائل غادروا عالم المدائن المائي، وأنشأوا مدينتهم على أطراف الصحراء بناءً على توجيهات الخليفة عمر، إلا أنهم كانوا على مقربة من ضفاف الفرات أو من فروعه، فقد أشار الطبري[٨] إلى وجود شبكة من القنوات جنوب الكوفة، وهذه القنوات معروفة بنهر الحيرة ونهر السليحين ونهر القادسية ونهر يوسف، كما أن الأخبار الخاصة بمعركة القادسية تحدثت عن قناة اسمها العتيق[٩] يبدو أنها كانت مهملة، وقد أشار إليها المسعودي واصفاً إياها بأنها مجرى قديم للفرات كان يصب في بحر قديم قام مكان بحيرة النجف[١٠]، ومن المؤكد أن الحيرة — القريبة من الكوفة — لم تكن قادرة على أن تحافظ على وجودها المزدهر في الماضي كونها واحة من دون الري، وقد تغذت الضفة الغربية للفرات بواسطة القنوات الآخذة من الفرات، ويحتمل أنها أهملت في أواخر العهد الساساني وعادت إلى سالف نشاطها في العصر العربي[١١] .

وفي زمن ولاية خالد القسري على العراق (١٠٥ — ١٢٩هـ) حفرت أنهار جديدة تزود المدينة بماء الفرات العذب مثل : نهر الجامع ونهر خالد والمبارك وباجوه وبارمانة ولوبه، فمثّل ذلك شبكة حقيقية من الأنهار الفرعية[١٢] لذلك كان سكان الكوفة يحصلون على الماء مباشرة دون عناء، ولم يكن هناك تنظيم معقد في عملية توفير الماء بل كان اعتمادهم على السقائين وبعض الآبار في القصر وفي بعض الجبانات[١٣] . ويشير الطبري[١٤] إلى وجود دار للسقاية، كانت عبارة عن بناية عمومية للتموين بالماء، ويبدو أن دور السقاية العامة استمرت إلى عصور متأخرة، فقد أشار ابن جبير[١٥] إلى وجود سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها أحواض كبار . وقد أسهمت المصادر القديمة في ذكر فضل الفرات على الكوفة والإشادة بعذوبته، وكثيراً ما افتخر أهل الكوفة وفضلوا أنفسهم على أهل البصرة بأن هواءهم أصح وماءهم أعذب من ماء البصرة[١٦] . أما مدينة الفسطاط التي أسست في مصر سنة ٢١هـ، فقد عدت من الأمصار الإسلامية السبعة، وتجمعها وعدد من الأمصار لاسيما البصرة والكوفة سمات مشتركة أهمها أن تأسيسها كان نتيجة

من نتائج الفتوحات الإسلامية وأن العوامل العسكرية قد لعبت دوراً بارزاً في اختيارها ومن ثم في وضع خططها ووحداتها العمرانية، وأكثر سكانها كان من القبائل العربية كما هو الحال في البصرة والكوفة، وقد شهدت بعد زمن قصير من تأسيسها تطورات عمرانية وسكانية كبيرة، فازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والثقافية .

لقد روعي عند تأسيس هذه المدينة المستلزمات الطبيعية والسياسية لقيام المدن. فالروايات التاريخية عن المرحلة الأولى لتأسيس الفسطاط تشير إلى أن هناك تفهماً في مسألة تخطيطها ولم يكن الأمر عشوائياً، فقد اختير موقعها بجوار نهر النيل الذي يحدها غرباً والجبل شرقاً وتقع المزارع بينها من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى، فضلاً عن وقوعها على رأس الدلتا ليسهل الإشراف منها على الوجهين البحري والقبلي، ولم يكن العرب أمة بحرية لذا لم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ الحاضرة على البحر الأحمر حتى لا يحول بينها وبين مركز القيادة ماء كما رأى عمر بن الخطاب ﷺ.[٦٧]

وإذا انتقلنا إلى مدينة القيروان وبحثنا في العوامل التي ساعدت على تأسيسها واتخاذها مدينة، والأسس العمرانية التي استندت عليها، وجدنا أنها تشابه إلى حد كبير العوامل التي ساعدت على ظهور كل من البصرة والكوفة والفسطاط، فهي من ثمار حركة الفتح العربي في شمال أفريقيا، وعلى الرغم من ندرة المعلومات التاريخية المفصلة عن ظروف مرحلتها التأسيسية، فإن هناك اتفاقاً بين المؤرخين والبلدانيين على أنها تأسست سنة ٥٠هـ/٦٧٠م وأن مؤسسها عقبة بن نافع ولم ترد روايات أخرى تخالف ذلك .

اختير موقع القيروان وسط البر بعيداً عن الساحل لضرورات عسكرية وعوامل نفسية توافق ذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية، ولم يكن هناك على ما يبدو أي مصدر دائم لمياه الشرب، سوى ما ذكر عن وجود عين ماء كبيرة وهي البئر المسماة (بئر أم عياض) وأن هذه البئر كانت من أسباب اختيار موقع القيروان[٦٨]، ويبدو أن هذه البئر لم تكن تفي بحاجة السكان، أو أنها نضبت بحيث لم نجد لها أثراً في حياة المدينة اللاحقة، ذلك أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان منذ أيام تأسيسها الأولى تمثلت بالموارد المائية، كما هو الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فمياه البصرة

كانت تأتي من الأنهار غير أنها مالحة، أما مدينة القيروان فكانت تتزود بالمياه الصالحة للشرب من مصدرين :

الأول : مياه الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل) .

والثاني : مياه وادي السراويل في قبلة المدينة، وقد كان مالحاً[١٩] . فقد ذكر اليعقوبي أن أهل القيروان كان "شربهم ماء المطر إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المواجل . . . ولهم وادي يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح . . . يستعملونه فيما يحتاجون إليه"[٢٠] .

وقد اشتهرت القيروان بمواجلها (صهاريج المياه) حتى سميت بمدينة المواجل، ومازال بعضها باقياً إلى اليوم[٢١] . وقد ذكر البكري أنه في عهد هشام بن عبد الملك تم بناء خمسة عشر ماجلاً للماء، لكن أعظم تلك المواجل ما بناه أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب وهو مستدير ذو مساحة كبيرة يتصل بها ماجل أصغر، فإذا جرى الماء من الوادي يقع في الماجل الصغير ثم يتحول بعد امتلائه إلى الماجل الكبير[٢٢] .

وكانت أهم تلك المعالجات لهذه المشكلة المعقدة هي قيام المعز بحفر قناة بين الجبل والمدينة تزود تلك المواجل بالمياه[٢٣] . ومن الواضح أن عدم توفر مياه الشرب كان من أهم المشاكل التي واجهت نمو مدينة القيروان وتوسعها .

أما أكثر المدن العربية الإسلامية معاناة من مشكلة الموارد المائية، فهي مدينة البصرة، وكانت أول مدينة تؤسس في التاريخ العربي الإسلامي، فما العلاقة بين اختيار الموقع وظهور المشكلة ؟ وما هي المعالجات والحلول التي اقترحت لمواجهة هذه المشكلة خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة ؟

ظهور البصرة واختيار موقعها

عرف المسلمون منطقة البصرة[٢٤] أول مرة سنة ١٢هـ/٦٣٣م حين مر بها خالد بن الوليد بعد فراغه من حروب الردة منتصراً، فقد صدرت إليه أوامر الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ وهو في اليمامة بالتوجه إلى الحيرة ودخول العراق من جهة الأبلة[٢٥] "ولم

تكن يومئذ إلا الخريبة، وكانت منازل خربة وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من العبث في تلك الناحية"[٢٦]، وقد عزز مرور خالد وقيامه بشن غارات على القوات الفارسية في المنطقة معنويات القبائل العربية المقيمة هناك فزادت من فاعلية هجماتها على الفرس.

وفي خلافة عمر بن الخطاب ﷺ امتد مشروع الفتح بسرعة باتجاه العراق، فقد سعى عمر إلى توسيع الغارات التي كانت تشنها القبائل العربية بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني على القوات الفارسية وتنظيمها وعقلنتها. وفي سنة ١٣هـ/٦٣٤م بدأت عملية تعبئة القوات التي انطلقت من شبه جزيرة العرب لفتح العراق وتحشيدها، واتخذت من الأطراف الوسطى منه مركزاً لتجمعاتها قرب الحيرة، في المنطقة المواجهة للمدائن عاصمة الساسانيين ومقر حكمهم، في حين أرسلت قوة ثانوية إلى جنوب العراق قرب الأبلة، كان الغرض من إنفاذها آنذاك مشاغلة الفرس ومنعهم من إمداد قواتهم الرئيسية التي تقاتل العرب في جبهة الكوفة[٢٧]. غير أن هذه القوة الصغيرة سرعان ما اتسعت مهماتها، وزاد عددها ليتسنى لها مراقبة طريق الخليج والطرق البرية الأخرى بين العراق وفارس، فضلاً عن قيامها بشن غارات محدودة على المناطق المقابلة والتخوم القريبة[٢٨]، وكان على رأس تلك القوة الصحابي عتبة بن غزوان، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة كانت الخطوة الأولى لظهور البصرة التي تحكمت في ظهورها عدة دوافع وضرورات عسكرية بحتة، كما تحكمت هذه الضرورات في اختيار الموقع وما تلاه من خطط.

وعلى الرغم من عدم اتفاق الآراء تماماً حول تاريخ إنفاذ عتبة إلى المنطقة وظهور البصرة، فضلاً عن التناقض في علاقات الوقائع وعرض الظروف التي رافقت التأسيس، يمكن القول أنه كان هناك حدثان واضحان يشيران إلى ظهور البصرة، الأول تمثل في الإقامة المؤقتة سنة ١٤هـ (المعسكر البدائي) بعد معركة البويب مباشرة، والثاني هو الإقامة الدائمة المصحوبة بالتخطيط والبناء بعد النصر الحاسم في معركة القادسية وهزيمة القوات الساسانية سنة ١٦هـ/٦٣٧م[٢٩]. وقد أشارت المصادر إلى أن معسكر جيش عتبة كان خلال تجربة الثلاث السنوات من الإقامة المؤقتة ينتقل من مكان لآخر، وبعد محاولات (نزولات) ثلاث باءت جميعها بالفشل، وتعرضت فيها حياة الجند للخطر والمرض لوخامة المنطقة ورداءة ظروفها البيئية، فكر عتبة في اختيار مخيم دائم على تخوم الصحراء[٣٠].

أما اختيار الموقع فجميع الدلائل تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في ظهور المدينة في مرحلتها التأسيسية الانتقالية المؤقتة، فالشروط التي شدد عليها الخليفة عمر ﷺ عند إعطاء الإذن لعتبة بالإقامة الدائمة واختيار المكان تؤكد ذلك، فقد اشترط أن يكون الموقع المنتخب على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة لكي تصبح عملية وصول الإمدادات والاتصالات الأخرى مع المركز سهلة وميسورة، وهذا الشرط يطابق الاستراتيجية العسكرية العربية في مسألة الانسحاب إلى الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب مصاعب عسكرية وبذلك كانت تعبيرات "على طرف البر، قريب من الريف على طرف الصحراء، لا تجعلوا بيني وبينهم بحراً"[٣١] الخ، هي المعاني التي تضمنت ذلك المدلول العسكري، وقد نجد هذا الأمر بوضوح في اتخاذ كل من البصرة والكوفة والفسطاط حواضر سكنية، ولا يستبعد أيضاً في هذا المجال أن يكون قرار الاستقرار في منطقة تشرف على البادية قد راعى العوامل النفسية للمقاتلين العرب بحيث يكون تكيفهم معها أكثر بداهة .

لقد اختير موقع البصرة للضرورات والأسباب آنفة الذكر، عند نافذة العراق الجنوبية، فوق عتبة من الأرض اليابسة التي تفصل منطقة البطائح[٣٢] عن ساحل الخليج العربي، فتهيأ لها موقع فريد، هو ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء[٣٣] وقد بنيت البصرة بعد تخطيطها في أرض مستوية خالية من أي عوارض أو مرتفعات تحد حدودها وتعطل توسعها وامتدادها، وهي أرض منخفضة لا يزيد ارتفاعها عن مستوى سطح البحر أكثر من أربعة أمتار، وتزداد ارتفاعاً كلما توجهنا غرباً، وهي أرض جرداء غير ذات زرع تفتقر إلى أي مصدر للمياه وتبعد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً) عن أقرب موضع مأهول هو الأبلة التي تقع على شط العرب، وكان يسمى آنئذ دجلة العوراء[٣٤] .

ظروف المدينة البيئية ومشكلة الماء

إن موقع البصرة الجغرافي قد هيأ لها أن تكون مركزاً مهماً من مراكز الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية لنشاطها التجاري المبكر في صدر الإسلام الذي تنامى بسرعة في مطلع القرن الثاني للهجرة بعد أن تخلت المدينة عن وظيفتها العسكرية

تدريجياً في أعقاب فتور حركة الفتوح في أواخر القرن الأول الهجري، كما أن هذا الموقع هيأ لها مورداً زراعياً يؤمن حياة السكان الغذائية. الأمر الذي أدى إلى نمو الكثافة السكانية فيها بسرعة كبيرة من حوالي ألف مقاتل عند تمصيرها سنة ١٦هـ/٦٣٧م إلى حوالي ٣٠٠ ألف ساكن سنة ٥٠ للهجرة[٣٥]، ثم صار عدد السكان فيها نصف مليون نسمة أواخر العصر الأموي[٣٦]، وفي العصر العباسي أصبح بحدود المليون نسمة[٣٧].

إلا أن المدينة بسبب موقعها الذي كان لتعليمات الخليفة عمر ﷺ أثر جوهري في اختياره، ذلك الاختيار المخالف لقوانين العمران العامة، والمفسر بمجاورة البادية مع شحة مياه الشرب، واجهت ظروفاً بيئية غاية في الصعوبة، لا تسمح في الأقل للبصرة أن تكون ذلك البلد العظيم الذي عرفناه، فالمناخ قاس والمنطقة جرداء تفتقر إلى أي مصدر للمياه الصالحة للشرب، فضلاً عن سوء أحوال تربتها، ويتجلى ذلك في كلمة الشكوى المنسوبة للأحنف بن قيس التي قالها بين يدي الخليفة عمر بن الخطاب نيابة عن وفد أهل البصرة الذي تشكل لهذا الغرض[٣٨] في السنة الثامنة عشرة للهجرة[٣٩] خير تصوير لواقع الظروف البيئية في المدينة بعد عام واحد من تمصيرها.

قال الأحنف زعيم تميم شارحاً قضية أهل البصرة "يا أمير المؤمنين، إنك لكما ذكروا، وقد يعزب ما قد يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة. وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بآذانهم، وإنا لم نزل ننزل منزلاً بعد منزل حين أرزنا إلى البر، وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب، فتأتيهم ثمارهم ولم تخضد وانا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة، زعقة نشاشة، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة، دارنا فعمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير، وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا، فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها"[٤٠].

وربما كانت هذه الخطبة موضوعة، فقد وردت في عدة مصادر بصياغات مختلفة[٤١] لكنها تتجاوب مع الحقيقة وترسم صورة الواقع البيئي للمدينة والصعوبات الكبيرة التي واجهها سكان البصرة جراء تلك الظروف.

لقد كانت مسألة توفير مياه الشرب من أصعب المشاكل في البصرة منذ تأسيسها. فأمواه المدينة مجة مالحة وهي إن صلحت لسقي المزروعات فإنها غير صالحة للاستهلاك البشري[٤٢] وقد ضج من فسادها الجميع منذ الأيام الأولى من تأسيسها . وكان من المفروض أن البدو من أكثر الناس قدرة على تحمل عنت الماء، إلا أن موضوع تزويد المدينة بالماء العذب خلق مشكلة نجد صداها في معظم المؤلفات التي يرد فيها ذكر البصرة، فهذا أبو اسحق الصابئ يتلهف إلى السكنى في بغـداد ويصف ماء البصرة فيقول[٤٣] :

لهف نفسي على المقام ببغدا　　　د وشربي من كوز ماء بثلج

نحن في البصرة الجميلة نُسقى　　　شر سقيا من مائها الأترجي

وقد ظلت مشكلة الماء وملوحته من أبرز صفات البصرة حتى زمن متأخر على الرغم من كثرة الأنهار والقنوات التي شقت إليها من شط العرب في وقت مبكر وعلى الرغم من تعدد المحاولات والمشاريع فالاصطخري في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يقارن بين الكوفة والبصرة قائلا : إن الكوفة قريبة من البصرة في المساحة، لكن هواؤها أصح، وماؤها أعذب من البصرة[٤٤] . ويذكر المقدسي أن مياه البصرة ضيقة لأنها تحمل في السفن من الأبلة[٤٥]، أما المياه المجاورة للمدينة فكانت غير طيبة ومالحة لأن "ثلثه ماء البحر وثلثه ماء الجزر وثلثه ماء الحجر"[٤٦] . كما أشار ابن بطوطة[٤٧] في رحلته في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إلى هذه المشكلة التي كان يعاني منها أهل البصرة .

وفي الوقت الذي تضاربت فيه آراء الباحثين من عرب ومستشرقين حول التفاسير التي قدمها الباحثون اللغويون والمؤرخون العرب لمعنى كلمة (البصرة) كان منهم من وجد في مشكلة مياه الشرب سبباً لتلك التسمية (البصرة) تشبيهاً لها بمياه (البسرة) الغليظة التي عرفها العرب في نجد، فقد ذكر ياقوت الحموي أن (البسرة) "من مياه بني عقيل في نجد بالأعراف، أعراف غمرة، فإذا شرب الإنسان من مائها شيئاً لم يرو حتى يرسل ذنبه – كذا – وليست ملحة جداً ولكنها غليظة"[٤٨]، ولعل العرب سموا هذه الحاضرة باسم تلك المياه لشبه مائها بماء تلك، ثم كان ما كان من السين والصاد من الإبدال الصوتي[٤٩] .

من جانب آخر كان هناك مشكل بيئي ثان عانت منه المدينة معاناة شديدة، وزاد مشكلة عدم توفر المياه العذبة صعوبة أخرى وهو المناخ الذي لم يكن طيباً وعرف برداءته، فقد عرفت البصرة بتغير المناخ فيها في اليوم الواحد، ذكر ياقوت في معجم البلدان ما نصه "قال الجاحظ : من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لأنهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات"[٥٠] .

وإذا كان هذا هو طقس البصرة في اليوم الواحد، فهو شديد التفاوت أيضاً بين الصيف والشتاء، فشتاؤها بارد "وربما جمد الماء في البصرة"[٥١] وصيفها شديد الحر، يطيب قليلاً، وإذا هبت (الجنوب) حصلت الوخامة واشتدت أزمة الحر وكثرت الرطوبة المملة وتضايقت الأنفاس فحصل في الأعضاء رخاوة وكسل[٥٢] وقد وصف ابن لنكنك هذه الحال بقوله[٥٣] :

نحن في البصرة في لو ن من العيش ظريف

نحن ما هبت شمال بين جنات وريف

فإذا هبت جنوب فكأنا في خريف

ويبدو أن رداءة هواء المدينة مرده إلى كثرة المستنقعات الحاصلة من انحدار مياه الفيضان، وربما ركد الماء في بعض الأراضي المحيطة بها عدة أشهر حتى ينتن ويتعفن الهواء[٥٤] فضلاً عن كثرة التبخر من تلك المياه المنتشرة على مساحة واسعة من أرض المدينة ومحيطها بسبب الحرارة الشديدة صيفاً، واستواء أرض البصرة التي جعلت مياه الأنهار تجري ببطء شديد، كل ذلك أدى إلى أن تكون السباخ التي تكاد تغطي معظم أرض البصرة وأصبحت سمة من سمات أرضها - إلى يومنا هذا - على الرغم من كل محاولات الاستصلاح التي جرت بعد الفتح العربي الإسلامي والتي استخدم فيها العبيد بأعداد كبيرة جداً لكسح هذا السباخ، وظلوا يعملون فيها حتى أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عندما قاموا بحركتهم المعروفة[٥٥] . يلاحظ أنه لم يذكر في تاريخ الدولة العربية الإسلامية استخدام للعبيد بهذا العدد الواسع إلا في منطقة البصرة .

وفي الوقت الذي امتدحت فيه البصرة لخصائص طيبة فيها، فقد قيل فيها الكثير من الذم بسبب رداءة مائها وهوائها، قال فيها أبو العيناء محمد بن القاسم بن قلاد

الهاشمي[٥٦] لما سئل عن البصرة "ماؤها أجاج، وحرها عذاب[٥٧] وقد انعكست تلك الطبيعة القاسية على أبدان البصريين وألوانهم وكسفت وجوههم حتى أن شاعراً من أهل الكوفة عاب على أهل البصرة نحافتهم وضعف أبدانهم فكأنهم العشاق المعاميد، فقال[٥٨] :

لله أترج غدا بيننا معبراً عن حال ذي عبرة
لما كسى ثياب الضنى أهل الهوى وساكني البصرة

الجهود والمحاولات لمواجهة المشكلة

أشرنا إلى أن المنطقة التي أنشئت فيها البصرة كانت خالية من الأنهار الفرعية التي توصل المياه العذبة، فكان أهل البصرة في أوائل أيام تأسيسها يعتمدون على مياه البطيحة التي كانت أعذب من دجلة[٥٩] — شط العرب — وكان ماء البطيحة يصل إلى أطراف البصرة، ولكن من الصعب تحديد مواقعه لعدم ثباتها، إذ يعتمد ذلك على كمية المياه فيها، فهو يزداد ويتسع في مواسم الفيضان (الربيع) وينحسر في موسم الصيف، كما يرتبط أيضاً بمدى صلاح المشاريع الإروائية وفعاليتها في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق، فيزيد ماء البطيحة وتدخلها كميات هائلة من المياه في الأزمنة التي تتعرض فيها تلك المشاريع إلى التخريب والإهمال[٦٠]، لذا فإن هذا المصدر لم يكن يؤمن حاجة السكان من الماء العذب بانتظام، فضلاً عن صعوبة الحصول عليه ونقله . وذكر البلاذري أن الأحنف بن قيس حين شكا للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ما يلقاه أهل البصرة من معاناة بسبب الماء قال : ". . . يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين"[٦١]

إن الإجراء الفوري الذي اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب لمعالجة هذه المشكلة بعد شكوى أهل البصرة أنه أمر أبا موسى الأشعري والي البصرة آنئذ أن (يحفر لهم نهرا) فحفر نهر الأبلة، وقصة حفر هذا النهر أوردها البلاذري[٦٢] وخلاصتها أنه كان لدجلة العوراء وهي دجلة البصرة خور[٦٣] طوله قدر فرسخ يجري فيه ماء الأمطار ويتراجع ماؤه

عند المد، وينضب عند الجزر، وكان لحده مما يلي البصرة فورة واسعة تسمى في الجاهلية (الأجانة) وسمته العرب في الإسلام بـ (الجزارة)[٦٤] وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب تقرر أن يحفر لأهل البصرة نهر، فابتدأ الحفر في الأجانة لمسافة ثلاثة فراسخ حتى وصل البصرة فصار طول نهر الأبلة أربعة فراسخ، ويبدو أن الحفر لم يكن منظماً أو عميقاً أو لم يجر الاعتناء بكريه ربما بسبب الرغبة في إيصال الماء إلى المدينة الجديدة بأسرع وقت لتلافي مشكلة شحة المياه فيها، لذلك انطم بعد مدة قصيرة، فأعيد حفره وتعميقه في زمن الخليفة عثمان بن عفان، ولكن بمجرى جديد قريب من الحفر القديم، وهو المجرى اذي استقر عليه بعدئذ ويسمى اليوم نهر العشار وتقع عليه مدينة البصرة الحديثة[٦٥] .

يبدو أن المشروع الإنشائي الأول لم يحل المشكلة، يفسر ذلك كثرة المشاريع التي نفذتها الدولة فيما بعد مع تكرار شكوى أهل المدينة من استمرار هذه المشكلة الحياتية، لذلك اتجه الخلفاء والولاة نحو حفر المزيد من الأنهـــار، ومن أشهر تلك الأنهار نهر المعقل .

ويعد نهر المعقل من أهم المشاريع التي نفذت في المدينة بعد نهر الأبلة فكان يوازيه في الأهمية، وقد ارتبط اسم النهر باسم الصحابي المعروف معقل بن يسار الذي أشرف على حفره بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب[٦٦] ، وقيل أنه حفر في زمن ولاية زياد بن أبيـه (٤٥-٥٣هـ / ٦٦٥-٦٧٣م) في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقد أشرف على حفره معقل بن يسار فسمي باسمه على الرغم من أنه حفر بأمر من زياد[٦٧] ، والمرجح أن زياداً قام بتوسيعه وتنظيمه ضمن ما قام به من أعمال مهمة في مجال تنظيم المدينة فكان هذا الاختلاف بين الروايتين، فزياد هو الذي قام بمده إلى جهة الجنوب وسمى ذلك نهر العطف بنهر دبيس[٦٨] .يتفرع نهر المعقل من دجلة — شط العرب — من جهة الشمال الشرقي لمدينة البصرة[٦٩] ويتجه مستقيماً نحو الغرب ثم ينعطف نحو الجنوب على شكل قوس وينتهي بمدينة البصرة شمال الجانب الغربي منها حيث يلتقي بنهر الأبلة[٧٠] ويكونان قناة واحدة تسير مسافة ستة كيلومترات لتصب في المبزل المعروف الآن بخور عبد الله، وهو منصرف جميع قنوات وأنهار البصرة الآخذة من شط العرب[٧١] . وتأتي أهمية هذا النهر في النقل التجاري أيضاً لعمقه وغزارة مائه على الرغم من كثرة الأنهار

الآخذة منه[٧٢] . ونهر معقل هو الآن من الأنهار المندثرة[٧٣] والمرجح أن فوهته كانت عند محلة المعقل الحالية شمال مدينة البصرة الحديثة[٧٤] .

وخلال ولاية عبد الله بن عامر الأولى على البصرة (٢٥ – ٣٦هـ/٦٤٥ – ٦٥٦م) حفرت أنهار جديدة أخرى هي : نهر الأساورة الذي تم حفره سنة ٣١هـ[٧٥] وقد سمي نهر الأساورة باسم القوة العسكرية التي قاتلت العرب في الأحواز ثم انضمت إلى العرب لقاء منحهم امتيازات العرب نفسها في العطاء[٧٦] وهذا النهر يبدأ من دار فيل (مولى زياد)[٧٧] ويجري في الجهات الجنوبية الغربية من البصرة حيث كانت خطط تميم[٧٨]، ولم تذكر المصادر مصدر ماء هذا النهر، إلا أن موقعه الجغرافي يشير إلى أنه كان يأخذ ماءه من نهر الأبلة .

النهر الثاني الذي حفر في ولاية عبد الله بن عامر هو نهر أم عبد الله وكان هذا النهر يمر وسط بيوت البصرة وسوقها[٧٩] وكان عليه نخل أمر بعقره عبيد الله بن زياد عندما وصله خبر موت يزيد[٨٠]، ولم تذكر المصادر مصدر ماء هذا النهر . ويذكر الطبري نهراً ثالثاً ينسب إلى عبد الله بن عامر اسمه نهر عبد الله كان موقعه جنوب البصرة[٨١] ويأخذ ماءه من شط العرب .

وفي العصر الأموي استمرت جهود الخلفاء والولاة في تنفيذ مشاريع الري لمدينة البصرة فقام زياد بن أبيه (٤٥ – ٥٣هـ/٦٦٥ –٦٧٣م) بحفر نهر أم حبيب ونهر البنات ونهر أبي موسى[٨٢] . وكذلك اهتم الحجاج بن يوسف (٧٥ –٩٥هـ) بأمور الري فأمر بحفر عدة أنهار منها نهر الصين ونهر النيل ونهر الزابي[٨٣] وحفر عدي بن أرطأة الفزاري عامل عمر بن عبد العزيز على البصرة نهر عدي وقد ساهم حفر هذا النهر بتوفير الماء العذب لأهل البصرة[٨٤] .

وقيل أنه لما قدم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عاملاً على العراق سنة ١٢٦هـ/٧٤م من قبل يزيد بن عبد الملك أتاه أهل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم فكتب بذلك إلى يزيد فكتب هذا إليه : إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق فأنفقه عليه، فحفر النهر الذي يعرف بنهر عمر[٨٥] ولم ينتفع الناس من هذا النهر كما كان متوقعاً " إذ كان الماء الذي يأتيه نزراً وكان معظم ماء البطيحة يذهب في نهر الدير[٨٦] فظل البصريون يستعذبون من الأبلة حتى قدم سليمان بن علي[٨٧] البصرة واتخذ المغيثة[٨٨] وعمل

مسنناتها على البطيحة فحجز الماء عن نهر الدير وصرفه إلى نهر ابن عمر وأنفق على المغيثة ألف، ألف درهم"(٨٩).

استمر الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي في حفر المزيد من الأنهار لتوفير المياه الصالحة للشرب لسكان المدينة، وكان من النتائج العرضية لهذه السياسة أن كثرت الأنهار واستصلحت الكثير من الأراضي حتى صارت البصرة الممول الغذائي الرئيسي لمناطق واسعة مجاورة لها خاصة شمال شبه الجزيرة العربية والخليج العربي. لقد أتخمت المدينة ماءً بعد أن كانت تشكو من شحته، واشتهرت بين مدن العالم الإسلامي آنذاك بكثرة أنهارها التي كانت شبكة معقدة من الأنهار الكبيرة والصغيرة تتخلل أراضيها الزراعية والعمرانية، وقد أحصيت تلك الأنهار مطلع القرن الثاني للهجرة في أثناء ولاية بلال بن أبي بردة على البصرة (١٠٩ – ١١٨هـ/٧٢٧ – ٧٣٦م) فزادت على مائة وعشرين ألف نهر تجري فيها الزوارق(٩٠)، وقد رفض الاصطخري (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) قبول ذلك حين سمعه إلا أنه لم يلبث أن تراجع حين رأى المنطقة بنفسه قال: ". . . حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار(٩١) صغاراً تجري في كلها زواريق صغار، ولكل نهر اسم ينسب إلى اسم صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي فجوزت أن يكون ذلك في طول المسافة وعرضها"(٩٢).

إن هذه الرواية ربما تثير استغراب القارئ اليوم أيضاً لما يعتقده فيها من مبالغة تندرج في سياق المبالغات التي ألفناها في مصادرنا القديمة، غير أنها – في الحقيقة – تطابق الواقع إلى حد كبير، وقد حاولنا التحقق ميدانياً من هذه الفرضية على أرض البصرة مستندين إلى رواية سهراب(٩٣) الدقيقة إلى حد مقبول عن أنهار البصرة الكبيرة، فهذه الأنهار العشرة العظام(٩٤) التي ذكرها على الجانب الغربي من دجلة – شط العرب – مازالت تحتفظ بأسمائها حتى اليوم، كما تحتفظ بالمواقع نفسها والأبعاد التي بينها عدا اختلافات بسيطة(٩٥)، وجميع هذه الأنهار تأخذ ماءها من شط العرب ويجري فيها من غير تدخل الإنسان، وذلك من خلال عمليتي المد والجزر التي تحدث مرتين في اليوم وتسقي خلالها المزارع وغابات النخيل من خلال شبكة معقدة من القنوات والترع المتفرعة من هذه الأنهار، فضلاً عن القنوات والترع المتفرعة من شط العرب يفصل بين الواحدة

والأخرى مسافة ميل واحد وتتفرع منها أيضاً أفرع كثيرة أخرى تزيد أحياناً على العشرة أفرع في الميل المربع الواحد، فإذا كانت أرض البصرة بمغارسها وضواحيها وعمرانها "من عبدس إلى عبدان نيف وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا بحيث نهر ونخيل"(٩٦) فإن الرقم الذي ذكره الاصطخري يكون قريباً جداً من الواقع .

لم تكن عمليات حفر الأنهر هي الوسيلة الوحيدة التي لجأت إليها الدولة لمعالجة مشكلة المياه في البصرة، إذ لجأ بعض الولاة إلى أساليب أخرى منها : حفر الصهاريج الخاصة بهم تخزن فيها مياه الأمطار التي كانت تستخدم لأغراض الشرب. فقد كان لعبد الله بن عامر (٤١ – ٤٥هـ) وزياد بن أبيه (٤٥ – ٥٣هـ) صهاريج يبيحونها للناس كما كان للحجاج بن يوسف والي العراق (٧٥ – ٩٥هـ) في عهد عبد الملك صهريج في البصرة يجتمع فيه ماء المطر(٩٧)، ويبدو أن عدد هذه الصهاريج كان قليلاً ولم تكن في متناول جميع السكان .

ولعل أهم المحاولات والجهود التي بذلت في العصر العباسي لتوفير المياه العذبة لأهالي المدينة هي الأحواض التي اتخذها محمد بن سليمان بن علي والي البصرة (١٦٠ – ١٦٦هـ) الذي كان له في البصرة ضيعة "تنفق غلتها على دواليبها وإبلها ومصلحتها"(٩٨) وكانت المياه المختزنة في حوض المربد موزعة في أنابيب من الرصاص إلى مسافة فرسخ، ثم يرفع مستوى هذه المياه بواسطة دواليب كبيرة، واستمرت هذه الأحواض حتى دمرت سنة ٤٨٣هـ(٩٩) وربما حمل الماء في بعض الأحيان بواسطة السفن من الأبلة إلى أهالي البصرة، لذلك يصف المقدسي(١٠٠) مياه البصرة بأنها ضيقة لأنها تحمل في السفن .

لقد ظلت مسألة توفر المياه العذبة مصدر قلق دائم لسكان البصرة على مر العصور، فقد ذكر أن الخليفة العباسي الثاني أبا جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٦م) حين أراد أن يستخرج له ضيعة من البطيحة (أي تجفيف جزء من مياهها) كره أهل البصرة ذلك وقدم إليه وفد منهم ومعهم خارطة توضح صورة البطيحة، فأخبروه أنهم يتخوفون أن يملح ماؤهم بسبب هذا الإجراء فقال : "ما أراه كما ظننتم" وأمر بالتوقف عن العمل بهذا المشروع(١٠١) .

إن المصاعب التي لقيها البصريون للحصول على الماء العذب والجهود التي بذلوها ومواقف الصبر التي أبدوها لكي يوفروا لأنفسهم عنصراً أساسياً من عناصر الحياة الحضرية كانت كبيرة، ولكنها لم تقف أمام عجلة تطور وازدهار البصرة التي شقت طريقها بنفسها واحتلت تلك المكانة المهمة في العصر الوسيط في ميادين الفكر والسياسة والدين والاقتصاد، إنه أمر ملفت للنظر حقاً، يعلق شارل بيلا[١٠٢] على هذا الموضوع قائلاً : "إن فقدان ماء الشرب لدى البدوي الذي يعيش في الصحراء ليس فيه مدعاة للعجب، أما القول بأن الأجيال المقبلة وغير العربية قد استطاعت أن تألف هذه الحالة المزعجة فهذا يفترض وجود مشكلة شائكة ويطرح سؤالاً كبيراً يبحث عن جواب" .

الدكتور عبد الحكيم غنتاب الكعبي

كلية الآداب والعلوم / بني وليد – ليبيا

هوامش البحث

١ – جلانفيل داوني، أنطاكيا القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٧م، ص٦ .

٢ – المقدمة : طبعة دار الشعب، القاهرة، د. ت، ص٣١٤ .

٣ – تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦٦م، جـ ٤ ص٤١ .

٤ – البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧م، ص٣٣٦ .

٥ – يتضح ذلك من خلال إلقاء نظرة سريعة على قائمة أسماء من كتب عن المدن العربية والتمدن العربي خلال الحقبة الأولى من القرن العشرين وما أعقبها، ومن بين هؤلاء المستشرقين الذين عنوا بالدراسات التاريخية والمدنية : لامانس، بلاشير،سوفاجيه، بروفنسال، لويس ماسينيون، دوزي، فلاجيل، الأخوان جورج ووليم مارسيه، نولدكه، كرونيباوم، ترتون، فيرث.برونشفيك، بلانهول، كلود كاهن، شارل بيلا، بوتي، هنري بيرنيه، وعشرات غيرهم .

٦ – أنظر الدراسة القيمة عن (الاستشراق والمدينة الإسلامية) للدكتور هشام جعيط في كتابه : الكوفة، نشأة المدينـة العربية الإسلامية، الطبعة الثانية، دار الطليعة، ببروت ١٩٩٣، ص١٤٣ وما بعدها .

٧ – في مقدمتهم سوفاجيه، هنري بيرنيه، أكسنير بلانهول وغيرهم .

٨ – تاريخ، جـ ٦ ص٩٩ .

٩ – المصدر نفسه، جـ ٣ ص٥٥٦ .

١٠ – مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢، جـ ١ ص٩٠ .

١١ – هشام جعيط، مرجع سابق، ص٢٥٢ .

١٢ – البلاذري، فتوح، ص٢٨٩ .

١٣ – المصدر نفسه، ص٢٨٣ .

١٤ – المصدر السابق جـ ٦، ص١٠٦ .

١٥ – الرحلة، بيروت ١٩٦٤، ص١٨٩ .

١٦ — أنظر المسعودي، مروج الذهب جـ٣، ص٣٣١، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٦٠، ص٤٢٥ .

١٧ — حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ط ١٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩١، ص٤٢٥ .

١٨ — حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢، ص٢٩١ .

١٩ — عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، جامعة البصرة ١٩٨٦، ص٢١٧ ،الحبيب الجنحاني،القيروان عبر عصور الحضارة الإسلامية في المغرب، ١٩٨٦، ص٥٩ .

٢٠ — البلدان، ليدن ١٨٩١، ص٣٤٨ ؛ أنظر أيضاً ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١، ص٨٠ ؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص٢١٦-٢١٧ .

٢١ — حسين مؤنس، مرجع سابق، ص٢٩٢ .

٢٢ — البكري، أبو عبيده بن عبد العزيز الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، باريس ١٩١١، ص٢٦ .

٢٣ — عبد الجبار ناجي، مرجع سابق، ص٢١٨ .

٢٤ — وكانت تسمى يومئذ (أرض الهند) الطبري، جـ ٤، ص٣٤٧ ؛ ابن الفقيه، ص١٨٨ .

٢٥ — الطبري، جـ ٣، ص٣٤٣ ؛ البلاذري، فتوح، ص٣٣٨ ؛ قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد ١٩٨١، ص٣٤٥ .

٢٦ — الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠، ص١٢٣ ؛ الطبري جـ ٣، ص٣٤٣ .

٢٧ — الطبري جـ٣، ص٥٤٠ ؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، بيروت ١٩٦٥، ص٣٥٨ .

٢٨ — شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم كيلاني، دمشق ١٩٨٥، ص٣١ ؛ صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، بغداد ١٩٨٦، ص٤١ .

٢٩ — أنظر ابن الفقيه، ص١٨٧ ؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص١١٦-١١٧ ؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣٦ ؛ الطبري جـ ٣، ص٥٩١-٥٩٤ .

٣٠ — الطبري جـ ٤، ص٤٢ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٦٥، جـ٣، ص٤١١ .

٣١ — البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٤ ؛ الطبري جـ٤، ص٤١-٤٢ .

٣٢ – ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٥ جـ١، ص٤٥١ .

٣٣ – ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت د.ت، ص٢١٢ ؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤، ص٢٥ .

٣٤ – ابن الفقيه، ص١٩٠ ؛ صالح العلي، خطط البصرة، مجلة سومر ١٩٥٢، ص٧٢ .

٣٥ – صالح العلي، خطط البصرة، بمجلة سومر ص٢٨ .

٣٦ – صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، ص٤٨ .

٣٧ – عبد الرزاق الحسني، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١، ص١٧٥ .

٣٨ – الطبري، جـ ٤، ص٧٥ .

٣٩ – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، النقود الإسلامية، القسطنطينية ١٢٩٨، ص٤ .

٤٠ – الطبري جـ ٤، ص٧٥ ؛ المقريزي، المصدر السابق ص٥ .

٤١ – أنظر البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٥٦ ؛ ابن الفقيه، ص١٨٩ .

٤٢ – القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٩٠ .

٤٣ – الثعالبي، يتيمة الدهر، القاهرة ١٩٥٦، جـ ٢، ص٢٦٩ .

٤٤ – المسالك والممالك، ص٨٢ .

٤٥ – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١١٨، ص١٢٩ .

٤٦ – وفي هذا إشارة إلى واحدة من محاولات العرب توفير مياه عذبة لسكان المدينة عن طريق نقل الماء في السفن من شط العرب عبر نهر الأبلة .

٤٧ – الرحلة، دار صادر، بيروت ١٩٦٤، ص١٨٨ .

٤٨ – معجم البلدان جـ ١، ص٦٢٢ .

٤٩ – إبراهيم السامرائي، أشتات بصرية، بحث ملحق بالترجمة العربية بمؤلف ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١، ص٧١ .

٥٠ – جـ ١، ص٤٣٧ .

٥١ – المقدسي، ص١٢٥ .

٥٢ – النبهاني، الشيخ محمد بن خليفة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط ٢، القاهرة ١٣٤٢، ص١٢ .

٥٣ — الثعالبي، يتيمة الدهر جـ٢ ص١٢٥ ؛ ياقوت جـ١، ص٤٣٦ .

٥٤ — التحفة النبهانية، ص٩ — ١٠ .

٥٥ — وهي الحركة المعروفة بـ (حركة الزنج) . أنظر الطبري جـ ٩، ص٢٦٣ وما بعدها .

٥٦ — أنظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقـد الفريـد، تحقيق محمد سعيد العريـان، القاهرة ١٩٥٦، جـ ٢، ص١٢ .

٥٧ — عبد الحسين مبارك وآخر، من مشاهير أعلام البصرة، البصرة ١٩٨٣، ص١٨١ .

٥٨ — ابن بطوطة، الرحلة، ص١٨٨ .

٥٩ — البلاذري، فتوح، ص٣٦٩ .

٦٠ — المصدر نفسه ص٢٩٢ ؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص٩٥ .

٦١ — البلاذري، ص٣٥٦ .

٦٢ — المصدر السابق والصفحة ، وانظر أيضاً ابن الفقيه، ص١٨٩–١٩٠ .

٦٣ — الخور طريق ماء لم يحفره أحد، يجري فيه ماء الأمطار، البلاذري ص٣٥٦ .

٦٤ — ولعلها تقع في منطقة (الكزارة) حالياً في البصرة الحديثة والقريبة من نهر الأبلـة (العشار) حالياً .

٦٥ — طارق الكاتب، شط العرب وشط البصرة ١٩٧١، ص٩٤–١٠٣ .

٦٦ — المقريزي، النقود الإسلامية، مصدر سابق، ص٤ .

٦٧ — البلاذري، فتوح، ص٣٥٧ .

٦٨ — المصدر نفسه والصفحة ؛ صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها ص١٥٠ .

٦٩ — سهراب، عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، فينا ١٩٢٩، ص١٣٦ .

٧٠ — المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١١٧ .

٧١ — ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١، ص١٢ .

٧٢ — أنظر : صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، ص١٥٠–١٥٨ .

٧٣ — ماسينيون، مرجع سابق ص١٢ .

٧٤ — طارق الكاتب، مرجع سابق ص٣٥ .

٧٥ - البلاذري، فتوح البلدان ص٣٥٧-٣٧٢ .

٧٦ - أسكنت هذه القوة في البصرة وحالفت بني تميم، وكانت منهم أم عبيد الله بن زياد والي البصرة، أنظر : صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢، بيروت ١٩٦٩، ص٨٣-٨٤ .

٧٧ - البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٥٧ .

٧٨ - صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، ص٨٩ .

٧٩ - خليفة بن خياط، التاريخ، تحقيق أكرم العمري، بغداد ١٩٦٧، ص١٤٣ .

٨٠ - البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧١ .

٨١ - الطبري، جـ ٩، ص٤٧٣ .

٨٢ - ابن الفقيه، ص١٩٦ .

٨٣ - البلاذري، ص٣٨٣ .

٨٤ - نفسه ص٣٦٨-٣٦٩ .

٨٥ - نفسه ص٣٧٠ ؛ ابن رسته، ص٩٤ .

٨٦ - يقع شمال البصرة بحدود ٥٠ كم ويأخذ ماءه من شط العرب .

٨٧ - ثالث ولاة بني العباس على البصرة ١٣٣ - ١٣٩هـ وفي عهده ألحق السواد وكور دجلة والبحرين وعمان بالبصرة .

٨٨ - المغيثة : أرض أصابها المطر فهي مغيثة .

٨٩ - البلاذري، ص٣٧١ .

٩٠ - الاصطخري، المسالك والممالك، ليدن ١٩٢٧، ص٨٠ .

٩١ - المقصود بكلمة أنهار في هذا النص جميع القنوات المائية والترع، إذ كان العرب قديماً يطلقون على أي مجرى مائي اسم نهر .

٩٢ - المسالك والممالك، ص٨٠ ؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨، ص٢٣٥ .

٩٣ - سهراب، عجائب الأقاليم السبعة، ص١٣٥-١٣٦ .

٩٤ - أسماؤها من الشمال إلى الجنوب : أبو الأسد، المرأة، الدير، بثق شيرين، معقل، الأبلة، اليهودي، أبو الخصيب، الأمير، القندل، أنظر عبد الحكيم الكعبي، دور البصرة التجاري من

القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة تونس الأولى ١٩٩٧، ص١٧٤ .

٩٥ — أنظر : طارق الكاتب، مرجع سابق، ص١٠٦ ؛ صالح العلي، خطط البصرة، ص١٤٧ .

٩٦ — الفرسخ = ثلاثة أميال .

٩٧ — الاصطخري، المسالك، ص٨٠ .

٩٨ — البلاذري، فتوح ص٣٧١ .

٩٩ — نفس المصدر والصفحة .

١٠٠ — ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد ١٣٥٧هـ، جـ ٩، ص٥٣ .

١٠١ — أحسن التقاسيم، ص١١٨–١٢٩ .

١٠٢ — البلاذري، فتوح، ص٣٧١ .

المصادر

١ – ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني (ت ٦٣٩هـ) الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٧٥م .

٢ – ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد اللواتي (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م .

٣ – ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٨٤م .

٤ – ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن ١٣٥٧هـ .

٥ – ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٨٠هـ)، صورة الأرض، مكتبة الحياة بيروت، د–ت .

٦ – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، المقدمة، دار الشعب، القاهرة، د–ت .

٧ – ابن خياط، أبو عمر بن خياط (ت ٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، بغداد ١٩٦٧م .

٨ – ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ)، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١م .

٩ – ابن عبد ربه، أبوعمر شهاب الدين المرواني (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٦م .

١٠ – ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ)، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧م .

١١ – الاصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ)، مسالك الممالك، ليدن، بريل ١٩٢٧م .

١٢ – البكري، أبو عبيدة بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، باريس ١٩١١م .

١٣ – البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧م .

١٤ – الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر، القاهرة ١٩٥٦م .

١٥ — الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠م .

١٦ — سهراب (وضعه ما بين سنة ٢٨٩ — ٣٣٤هـ)، عجائب الأقاليم السبعة، فينا ١٩٢٩م .

١٧ — الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٦م .

١٨ — قدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٢٠هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد ١٩٨١م .

١٩ — القزويني، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م .

٢٠ — المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢م .
- التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥م .

٢١ — المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله البشاري، (ت ٣٨٧هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م .

٢٢ — المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ) كتاب النقود، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ .

٢٣ — ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت د-ت .

٢٤ — اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ) كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١م .

المراجع

١ – جلانفيل داوني، أنطاكيا القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٧م .

٢ – الحبيب الجنحاني، القيروان عبر عصور الحضارة الإسلامية في المغرب، ١٩٦٨م .

٣ – حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ط ١٣ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩١م .

٤ – حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢م .

٥ – شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م .

٦ – صالح أحمد العلي،

– خطط البصرة ومنطقتها، بغداد ١٩٨٦ .

– التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ط ٢، بيروت ١٩٦٩م .

٧ – طارق الكاتب، شط العرب وشط البصرة، البصرة ١٩٧١م .

٨ – عبد الرزاق الحسني، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١م .

٩ – عبد الحكيم الكعبي، دور البصرة التجاري من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، تونس ١٩٩٧م .

١٠ – عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن الإسلامية، البصرة ١٩٨٦م .

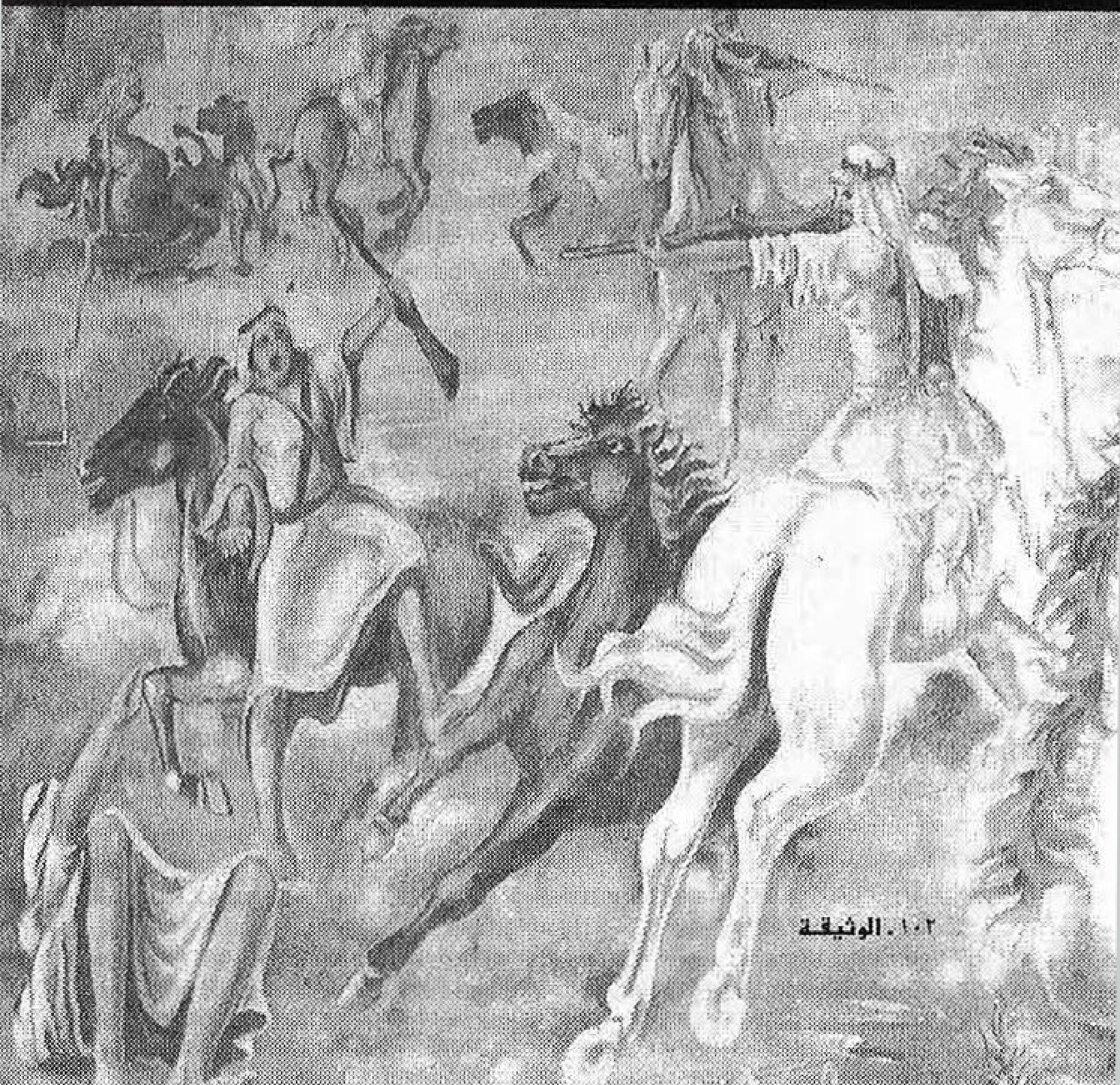
١١ – كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤م .

١٢ – لويس ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١م .

١٣ – محمد خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط ٢، القاهرة، ١٣٤٢هـ .

١٤ – هشام جعيط، الكوفة، نشأة المدينة العربية، ط ٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٣م .

إسهامات أهل البحرين في
في بلاد فارس



الفتوحات العربية الإسلامية في العصر الراشدي

بقلم : عصام كاظم داود

يشير المؤرخون وعلماء الآثار إلى أن أقدم اسم عرفت به البحرين هو (ندوكي **Niduki**)، والذي ظهر بشكل واضح في العهد القديم في أغلب النقوش السومرية والأكدية . بالإضافة إلى ذلك لوحظ هذا الاسم في ملحمة جلجامش الشهيرة[1] .

في حين أشارت المصادر البابلية إلى البحرين باسم دلمون **Dilmon** موضحة الدور التجاري القائم بين البابليين والأشوريين من جهة، وتلك المملكة التي كانت تشغل أراضي واسعة من السواحل الشرقية للخليج العربي والتي ازدهرت حضارتها عبر مراحلها التاريخية من جهة ثانية[2] .

وقد أطلق اليونان عليها اسم (أولوس) و (تيلوس) عندما غزا الإسكندر أراضي بابل. فأرسل ثلاث سفن حربية إلى سواحل الجزيرة العربية في الخليج العربي حتى وصلت إحدى السفن بقيادة (أرخياس) و (ندروس) إلى جزيرة تيلوس التي يقصد بها البحرين[3] .

أما في العصر الجاهلي، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن البحرين عرفت باسم (أوال) نسبة إلى صنم كانت تعبده قبيلة بكر بن وائل التي سكنت في الجزيرة مع قبائل عبد القيس قبل الإسلام بنحو ثلاثة قرون(٤) .

وفي العصر الإسلامي كان حاكم البحرين المنذر بن ساوي بن عبد الله أحد بني زيد الذي كان يدين بالولاء إلى دولة المناذرة في الحيرة، والتي تربطها علاقات جيدة مع الإمبراطورية الفارسية، وبالرغم من ذلك كان السكان العرب هم الذين يحكمون بلادهم وأن الفرس يشرفون على البلاد مع الحصول على بعض الامتيازات، وعندما بدأت الفتوحات قدر المسلمون أن يضعوا حداً لهذه السلطة الفارسية، فعادت الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي إلى السيادة العربية، ومن ثم ما لبثت أن دخلت البحرين سلماً في الإسلام بعد أن وصلت رسالة الرسول ﷺ وبقيت الجزيرة (البحرين) تعرف باسم (أوال) طيلة العصور الإسلامية حتى العصور الحديثة ومنذ القرن الرابع الميلادي ولغاية القرن السادس عشر أطلق عليها اسم البحرين(٥) .

وقد أطلق العرب اسم البحرين على الإقليم الساحلي للخليج العربي بين البصرة وعمان، فهو يشمل ما نعتبره في الوقت الحاضر الكويت والاحساء، وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديماً باسم (أوال) وهي متصلة غرباً باليمامة وشمالاً بالبصرة وجنوباً بعمان، ولا تشير المصادر بدقة إلى الحد الفاصل بين البحرين عن اليمامة أو عن البصرة، ولا ريب أن الدهناء ورمل يبرين هو الحد الطبيعي للبحرين في الغرب والفاصل بينها وبين اليمامة عمان فهي مدينة جلفار، وقد اعتبروها من العروض التي تشتمل على اليمامة والبحرين وما والاهما(٦) .

قبل أن نتناول الحملات العسكرية التي انطلقت من البحرين، لابد لنا من معرفة الدوافع التي تكمن وراء تجهيز العرب المسلمين في البحرين لتلك الحملات لفتح بلاد فارس والتي يمكننا أن نوجزها في النقاط الآتية :

أولاً : أن الغالبية من المدن الفارسية، ولاسيما أولئك العاملين (صناع، وأصحاب الحرف) أهل الطبقة العاملة فقد رحبوا بالإسلام، واعتنقته أعداد كبيرة منهم(٧)، وجدير بالذكر أن الإسلام لم يكن حكراً على العرب فحسب، وإنما جاء إلى الناس كافة، لذلك حمله العرب بعد أن صهرهم في وحدة سياسية عرفت بالدولة العربية الإسلامية(٨) .

ثانياً : سعى العرب المسلمون في البحرين لتأمين وحماية دولتهم من أولئك الفرس الطامعين وبناءً على ذلك كان لابد من تأمين تلك الدولة عن طريق فتح تلك الأقاليم المحيطة بهم ونشر الإسلام فيها لضمان حدود تلك الدولة(٩) .

ثالثاً : بالإضافة إلى ذلك، فقد سلك الحكام الفرس في المناطق العربية التي احتلوها سلوكاً عدوانياً مثلاً ما فعله سابور ذو الأكتاف في إقليم البحرين والأعمال التي ارتكبها بحق قبيلتي أياد وتميم، كانت تلك الأعمال حافزاً للعرب أن يفكروا بفتح بلاد فارس، لما أصاب أجدادهم وأبناءهم من تنكيل وقتل على أيدي ملوك الفرس(١٠) . كانت لتلك العوامل السالفة الذكر حافزا لانطلاق الحملات العسكرية على فارس في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عندما قام والي البحرين العلاء بن الحضرمي بغزوها، بعدما كتب النجاح له في القضاء على حركات الردة في البحرين فأصبح تحت سيطرته عدد كبير من الرجال المقاتلين الذين كانت تجمعهم وتنظم قواهم إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى(١١) مما دفع ابن الحضرمي لتلك الانتصارات التي حققها المسلمون في القضاء على الدولة الساسانية ومن أبرزها معركة القادسية (١٥هـ)(١٢) ومن ناحية أخرى، كان ابن الحضرمي يهدف لحماية البحرين من أي هجوم من قبل الفرس والذي يكون من نتائجه السيطرة على القبائل العربية في البحرين ومنعهم من مشاركة إخوانهم العرب المسلمين في محاربة الفرس، لذلك أراد الحضرمي أن يفاجئ الفرس بهجوم مباغت تكون من نتائجه إضعاف قوة الفرس والتوغل في بلادهم، مما يدفعهم إلى سحب قواتهم في المنطقة المواجهة للبصرة إلى الجنوب فتضعف مقاومتهم للجيوش العربية(١٣) .

ويبدو أن ابن الحضرمي كان يدرك أن أهل البحرين أثناء عبورهم نحو بلاد فارس سوف يتلقون عوناً ومساعدة من إخوانهم العرب القاطنين في الجانب الشرقي أو في أسياف البحر ليكونوا أدلاء لهم أثناء عبورهم والهجوم على الفرس . لقد مهد العلاء قبل الشروع بالحملة البحرية سنة ١٧هـ بحملات استطلاعية، كان يهدف من ورائها جس نبض العدو واكتشاف مواطن الضعف عنده، فقد أرسل حملة بقيادة هرثمة بن عرفجة البارقي(١٤) إلى شواطئ فارس تمكنت هذه الحملة بعد اشتباك قصير أن تحقق انتصاراً على العدو، وأن تفتح إحدى الجزر الواقعة في أرض فارس هي جزيرة لارا(١٥) وشيد مسجداً فيها، وجدير بالذكر أن العوامل ساعدت هرثمة على تحقيق النصر، ضعف

الأسطول الفارسي، فضلاً عن المساعدة التي حصلوا عليها من العرب الذين وضعوا أنفسهم لخدمة إخوانهم القادمين من البحرين كما أسلفنا سابقاً[١٦].

كان النصر الذي أحرزه المسلمون في تلك المحاولة السالفة الذكر، دافعاً لابن الحضرمي من أجل حشد الطاقات وتضافر الجهود في البحرين، فقد سعى لتجهيز حملة عسكرية جديدة من أبناء البحرين الذين عرف عنهم بأنهم مقتلون أشداء، فضلاً عن خبرتهم بفنون البحر والقتال في هذا الميدان، بالإضافة إلى ذلك فإن أهل البحرين أصبحوا أكثر تمسكاً بالإسلام والجهاد من أجل نشر الإسلام في تلك المناطق . وقد أثبت أهل البحرين قدرتهم على تخطي الصعوبات التي اعترضـتهم وواجهتهم في حربهم ضد الفرس[١٧].

لقد جمع العلاء جيشاً مكوناً من ثلاث فرق قوامه اثنا عشر ألف عربي على كل منها فكان الجارود بن المعلى[١٨] على الأولى وعلى الثانية ساور بن همام[١٩] وعلى الثالثة خليد بن المنذر بن ساوى[٢٠]، كان لا ينقصه شيء من أسلحة القتال، ولا ينقص قواده الدهاء ليضعوا التصميم، ولا جنوده الاندفاع ليقبلوا على المعركة يدافعون عن دين الله وعن كرامة العرب وعزتها فيقتلون ويقتلون . أبحرت تلك القوات باتجاه فارس واستطاعت أن تصل إلى جزيرة خارك[٢١].

ويبدو أن اختيار تلك الجزيرة يعود إلى جملة عوامل، منها وجود المرافئ المهمة من جهة، ولأن الفرس يمتهنون الصناعة ولا يحسنون القتال، بالإضافة إلى ذلك قلة القوات الفارسية في هذه الجزيرة . وبناءً على ذلك عبرت القوات العربية الخليج بسفن كانت قد جهزت لهذا الهدف وفي مقدمتهم العلاء بن الحضرمي، وكلهم عزم وتصميم على البذل والعطاء حتى النصر . والظاهر أن الفرس فوجئوا بعبور العرب المسلمين وأنهم لم يسمعوا إلا صوت التكبير يدوي حولهم . وبهذا الصدد يذكر الشاعر العربي كراز، الذي شهد ذلك العبور قوله :

هاب العلاء حياض البحر مقتحماً   فخضت قدماً إلى كفار دارينا[٢٢]

نزلت القوات العربية الإسلامية طاوس[٢٣]، فاشتبكت على الفور في معركة ضارية مع القوات الفارسية المتواجدة هناك التي كان يقودها الهربذ، وقد تمكنت القوات

الفارسية من محاصرة القوات العربية وأن تفصلها عن سفنها، وعلى الرغم من محاولات العلاء الانسحاب بقواته نحو البحرين أو البصرة، إلا أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح . وعندما علم الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بذلك أرسل حملة عسكرية بقيادة أبوسبرة بن أبي رهم استطاعت فك الحصار عن القوات العربية الإسلامية وإلحاق الهزيمة بالفرس[٢٤] .

والظاهر أن ابن الحضرمي لم يحصل على موافقة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ على القيام بالحملات البحرية لاعتقاده بأن الخليفة سوف يرفض ذلك، لأن الخليفة كان كثير التحفظ من ركوب البحر ومخاطره وقد تبلور هذا الاعتقاد فيما بعد حينما كتب والي مصر عمرو بن العاص إلى الخليفة طالباً منه الإذن بركوب البحر لمحاربة البيزنطيين، وقد طلب الخليفة من والي مصر وصف البحر فأجاب : "يا أمير المؤمنين . إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا برق" . فرد عليه الخليفة عمر ﷺ على ذلك يقول : "لا . . والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً" . بالإضافة إلى ذلك كان الحضرمي تواقاً إلى أن يضع شيئاً بالفرس الذين تمادوا في اعتداءاتهم على جيرانهم العرب[٢٥] .

وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بعزل الحضرمي عن البحرين، وجعل عثمان بن أبي العاص والياً عليها[٢٦] وحمله مهمة متابعة القوات العربية الإسلامية المتوغلة في إقليم فارس له من جهة، ولوالي البصرة أبي موسى الأشعري من جهة ثانية، بعدما أمرهما بالتعاون والتكاتف معاً وتوحيد قواتهما باتجاه بلاد فارس[٢٧] .

لقد جعل عثمان بن أبي العاص هدفه الأول منصباً نحو جزيرة بني كاوان[٢٨] .ويبدو أن تلك التوجهات نحو تلك الجزيرة نابعة من كثرة العرب فيها من جهة، ولبعدها عن المراكز العسكرية الفارسية من جهة ثانية، أضف إلى ذلك أن تلك المنطقة يضيق بها البحر ويمكن الإشراف منها على الملاحة والسيطرة على السفن مما يؤدي إلى حرمان الفرس من تجارتهم في المحيط الهندي، وقد كتب النصر للقوات العربية الإسلامية في فتح كاوان[٢٩] وتخليصها من الفرس[٣٠] .ولم تقتصر جهود عثمان بن أبي العاص على تلك الجزيرة فحسب، وإنما سعى لإضافة انتصارات جديدة إلى ذلك فقد

تولى مهمة تلك القوات التي تتكون من القبائل العربية من بني عبد القيس والأزد وبني ناجية فكتب النجاح له في فتح توج[٣١] وقد بنى مسجداً فيها[٣٢] .

ولم يستمر عثمان بن أبي العاص في حملاته العسكرية نحو المدن الفارسية، إذ سرعان ما صدرت الأوامر من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بالعـودة إلى البحرين وعمان . فترك أخاه الحَكَم بن أبي العاص على تلك القوات في توّج لتولي مسئوليتها هناك[٣٣] .

وعندما أمر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عثمان بن أبي العاص بالتوجه إلى إقليم فارس[٣٤] لمساعدة أخاه الحكم لمواصلة الحملات العسكرية في ذلك الإقليم، فجعل عثمان[٣٥] أخاه المغيرة على البحرين واتجه إلى إقليم فارس، وفي الوقت نفسه، كتب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري في البصرة بتقديم المساعدة لتلك القوات في إقليم فارس[٣٦] .

وبعد ذلك توجه عثمان بن أبي العاص إلى أسياف البحر[٣٧]، وإلى السواحل القريبة من توّج، وقد استطاع أن يفتح توّج صلحاً على أن يؤدي أهلها الجزية والخراج، ولم يكتف عند ذلك

فحسب، وإنما تقدم إلى كازرون[٣٨] والنوبندجان[٣٩] وسابور[٤٠]، وبالرغم من المقاومة التي أظهرتها تلك المناطق إلا أنها كانت ضعيفة، مما دفع أهلها إلى طلب الصلح، ولم تستمر سابور على ذلك الصلح وإنما نكثت ذلك مما دفع المسلمين للتوجه مرة ثانية لفتحها . ومن ثم توجه عثمان بن أبي العاص نحو أرّجان[٤١]، من جهة سابور، وفي الوقت نفسه توجه الأشعري من جهة البصرة فتمكنوا من فتحها وفرض الجزية والخراج عليها[٤٢] .ولم تقتصر جهود عثمان بن أبي العاص على ذلك، وإنما أرسل هرم بن حيان العبدي إلى بعض القلاع في فارس منها جور[٤٣] التي تعد مركز أردشيرخره[٤٤] ومن ثم التوجه إلى قلعة شيرخره التي تعرف بقلعة الشيوخ، وما لبث أن تعاون عثمان بن أبي العاص وأبو موسى الأشعري وتقدما نحو سيير[٤٥] وجهرم وفتح ما جاورهما من قلاع[٤٦] .

أما بالنسبة إلى دار أبجرد[٤٧] فلم تظهر أي مقاومة تذكر وإنما اكتفت بالصلح ومن بعدها فسا[٤٧] التي قبلت الصلح على غرار دار أبجرد[٤٨] .

وفيما يتعلق بـ (باصطخر) التي كانت تحتل مكانة مقدسة عند الفرس. فلا يمكن إغفال ما أشار إليه والي البحرين العلاء بن الحضرمي منذ بداية الفتوحات الإسلامية في هذا الشأن فقد كانت محاولاته الأولى نحو تلك المدينة دافعاً للولاة الذين جاءوا بعده، فقد بذلت جهود كثيرة لفتحها باعتبارها أهم المعاقل الفارسية ورمز للوجود الفارسي، فكانت للجهود التي بذلها عثمان بن أبي العاص وأبو موسى الأشعري إسهام كبير في معرفة مناطق الوهن لتلك المدينة مما سهل على والي البصرة عبد الله بن عامر متابعة سير الحملات وفتحها[٤٩] .

• أهم النتائج في البحث يمكن أن نوجزها بما يلي :

١ – يعتبر والي البحرين العلاء بن الحضرمي القائد العربي أول من نظم حملة بحرية على بلاد فارس .

٢ – أظهر البحث تكاتف أهل البحرين والتعاون والجهاد في سبيل الله والسعي لنشر الإسلام .

٣ – أوضح البحث القدرة العسكرية والخبرة التي يتمتع بها أهل البحرين .

٤ – أظهر البحث التعاون بين أهل البحرين والعرب في المناطق التي فتحوها مما يدل على سوء المعاملة التي تعرضوا لها من الفرس .

٥ – أن التمرد والعصيان سمة من سمات الفرس كلما سنحت الفرصة بذلك .

٦ – أوضح البحث التعاون بين العرب المسلمين في البصرة مع إخوانهم في البحرين عندما دعت الحاجة إلى ذلك .

الهوامش

١ – يوسف، مروة، عروبة البحرين في التاريخ، مجلة العلوم، العدد الأول (بيروت ١٩٥٩) ص٧٣ ؛ ينظر : العبيدي، خضير نعمان، البحرين من إمارات الخليج العربي، الطبعة الأولى، دار المعارف (بغداد ١٩٦٩) ص١٠ .

٢ – عبد الرحمن، مسامح، البحرين عبر التاريخ، دلمون، مجلة جمعية تاريخ وآثار البحرين، العدد الثالث عشر، ١٩٨٥ – ١٩٨٦، ص٤٥–٤٧ .

٣ – العبيدي، المصدر السابق، ص١٠ ؛ عبد الرحمن مسامح، المصدر السابق، ص٤٧ .

٤ – النجم، عبد الرحمن عبد الكريم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، دار الحرية للطباعة (بغداد ١٩٧٣)، ص١٧ ؛ ينظر : العبيدي، المصدر السابق، ص١٠ .

٥ – الشكري، عبد الحميد كاظم حمادي، البحرين . دراسة سياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز دراسات الخليج العربي (البصرة ١٩٩٠) ص١٣–١٤ .

٦ – العبيدي، المصدر السابق، ص١٠ ؛ النجم، المصدر السابق، ص١٧ .

٧ – أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٧٠) ص٢٣٧ .

٨ – اليعقوبي، أحمد بن يعقوب، التاريخ، دار صادر، (بيروت ١٩٦٠) جـ٢، ص١٣١ .

٩ – مصلح، فائق نجم، إقليم فارس منذ الفتح الإسلامي حتى ٢١٨هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، الآداب، (بغداد ١٩٨٤) ص١٨٢–١٨٣ .

١٠ – الشطب، أحمد عبد الكريم، العرب في الجانب الشرقي للخليج العربي، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز دراسات الخليج العربي (البصرة ١٩٨٩) ص٤١ .

١١ – مصلح، المصدر السابق، ص١٢ – ١٨٥ .

١٢ – الشطب، المصدر السابق، ص٤٢ .

١٣ – مصلح، المصدر السابق، ص١٨٥–١٨٦ .

١٤ – هرثمة بن عرفجة بن عبد العزي، وهو من بني عدي بن حارثة (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف (مصر ١٩٦٢) ص٣٦٧ .

١٥ – لارا، جزيرة بين سيراف وقيس، فيها مغاص اللؤلؤ ولمولها اثنا عشر فرسخاً، (الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان) جـ ٥، ص٧ .

١٦ – ابن سعد، محمد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، تصحيح وطبع د. يوليوس لبرت، بريل (ليدن ١٩٠٨) جـ ٤، ق٢، ص٧٨ ؛ ينظر : السوداني، رباب جبار، جبهة البصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، الآداب (البصرة ١٩٨٩) ص٦٦ .

١٧ – المصدر السابق، ص١٨٧ .

١٨ – الجارودي المعلى : من بني خديجة وكان سيداً من بني عبد القيس ورئيساً لهم ؛ خليفة، أبو عمر وقليته بن خياط، التاريخ، تحقيق سهيل زكار، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق ص٦١ .

١٩ – السوار بن همام : من بني مرة بن همام، وقد وفد على النبي (ص) ثم حضر الفتوح ؛ العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز أسماء الصحابة، (مصر ١٩٣٩) .

٢٠ – المنذر بن ساوى : بن عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم تميم صاحب البحرين ؛ ابن الأثير، عز الدين بن الحسن علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة (طهران ١٣٧٧هـ) جـ ٤، ص٤١٧ .

٢١ – خارك : وهي جزيرة تقع أمام مدينة جنابة في البحر . الحموي، المصدر السابق، جـ ٢، ص١٢٢ .

٢٢ – الحيدري، صلاح، العلاء بن الحضرمي، مجلة البصرة، العدد ١٠–١٣ لسنة ١٩٨١، ص٩٥–٩٦ .

٢٣ – طاووس: موضع على الساحل في الخليج العربي، وقد أورد الحموي (طوس) في الخليج العربي ؛ الحموي، المصدر نفسه، جـ ٣، ص٤٩٤ .

٢٤ – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (القاهرة ١٩٦٧) جـ ٤ ص٧٩ ؛ ينظر : الشطب، المصدر السابق، ص٤٣ ؛ السوداني، المصدر السابق، ص٦٦–٦٧ .

٢٥ – الطبري، المصدر نفسه، جـ ٤، ص٨٠ ؛ ينظر : السوداني، المصدر نفسه، ص٦٧ .

٢٦ – الطبري، المصدر نفسه، جـ ٤، ص١١٢–١١٣ ؛ ينظر : الصالح، صبحي، النظم الإسلامية، دار العلم للملايين (بيروت ١٩٦٥) ص٥١٢ .

٢٧ – الطبري، المصدر السابق، جـ ٤، ص٨٠ ؛ ينظر : السوداني، المصدر السابق، ص٦٧ .

٢٨ – قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، مطبعة دار الحرية (بغداد ١٩٨١) ص٣٨٨ .

٢٩ – كاوان، : تقع في الخليج العربي وتسمى بجزيرة لافت أيضاً (الحموي، المصدر السابق، جـ ٢ ، ص٧٩–٨٠ .

٣٠ – البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٠١) ص٣٩٤ .

٣١ – توَّج : مدينة بفارس قريبة من كازرون، شديدة الحر ؛ الحموي، المصدر السابق، جـ٢، ص٥٦ .

٣٢ – ابن الخياط، المصدر السابق، ق ١، ص١٣٤–١٣٥ ؛ ينظر : البلاذري، المصدر السابق ص ٣٩٣ ؛ الشطب، المصدر السابق، ص٤٤ .

٣٣ – البلاذري، المصدر السابق، ص٣٧٩ ؛ ينظر : الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم رشاد، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد (مصر ١٩٦٠) ص١٣٣ .

٣٤ – راشهر : تقع في أرض سابور قرب توَّج ؛ الحموي، المصدر السابق جـ ٣، ص١١٣ .

٣٥ – البلاذري، المصدر السابق، ص٣٧٩ ؛ ينظر : الدينوري، المصدر السابقص٣٨٧ ؛ مصلح، المصدر السابق، ص١٩٣–١٩٤ .

٣٦ – البلاذري، المصدر السابق، ص٣٨٠ ؛ ينظر : قدامة، المصدر السابق، ص٣٨٧ ؛ مصلح، المصدر السابق، ص١٩٤ .

٣٧ – الأسياف : السواحل (الحموي، المصدر السابق، جـ ٣، ص٢٩٨) .

٣٨ – كازرون : مدينة بفارس بين البحر وشيراز (الحموي، المصدر نفسه، جـ ٤، ص٤٢٩) .

٣٩ – النوبندجان : مدينة من أرض فارس وهي إحدى كور سابور (الحموي، المصدر نفسه، جـ٥، ص٣٠٧) .

٤٠ – سابور : وهي بلدة بين خوزستان و اجهان (الحموي، المصدر نفسه، جـ ٣، ص١٦٧) .

٤١ – أرجان : مدينة كبيرة كثيرة الخير أول من أنشأهاقباذ بن فيروز والد أنوشروان (الحموي، المصدر نفسه، جـ ١، المصدر السابق، ص١٤٦) .

٤٢ – البلاذري، المصدر السابق، ص٣٨٠ .

٤٣ – جور : مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخاً وهي من الإقليم الثالث (الحموي، المصدر السابق، جـ ٢، ص١٨١) .

٤٤ – أردشير خرة : كورة قديمة رسمها نمرود ثم عمرها بعده سيراف بن فارس وكثرها ممتد على البحر (الحموي، المصدر السابق، جـ ١، ص١٤٦) .

٤٥ – البلاذري، المصدر الأسبق، ص٣٩٥ .

٤٦ – ابن الخياط، المصدر السابق، ق ١، ص١٧١ ؛ ينظر : البلاذري، المصدر السابق، ص٣٩٦ .

٤٧ – دارابجرد : وهي أحد كور فارس كثير العلماء (الحموي، المصدر السابق، جـ ٢، ص٤١٩) .

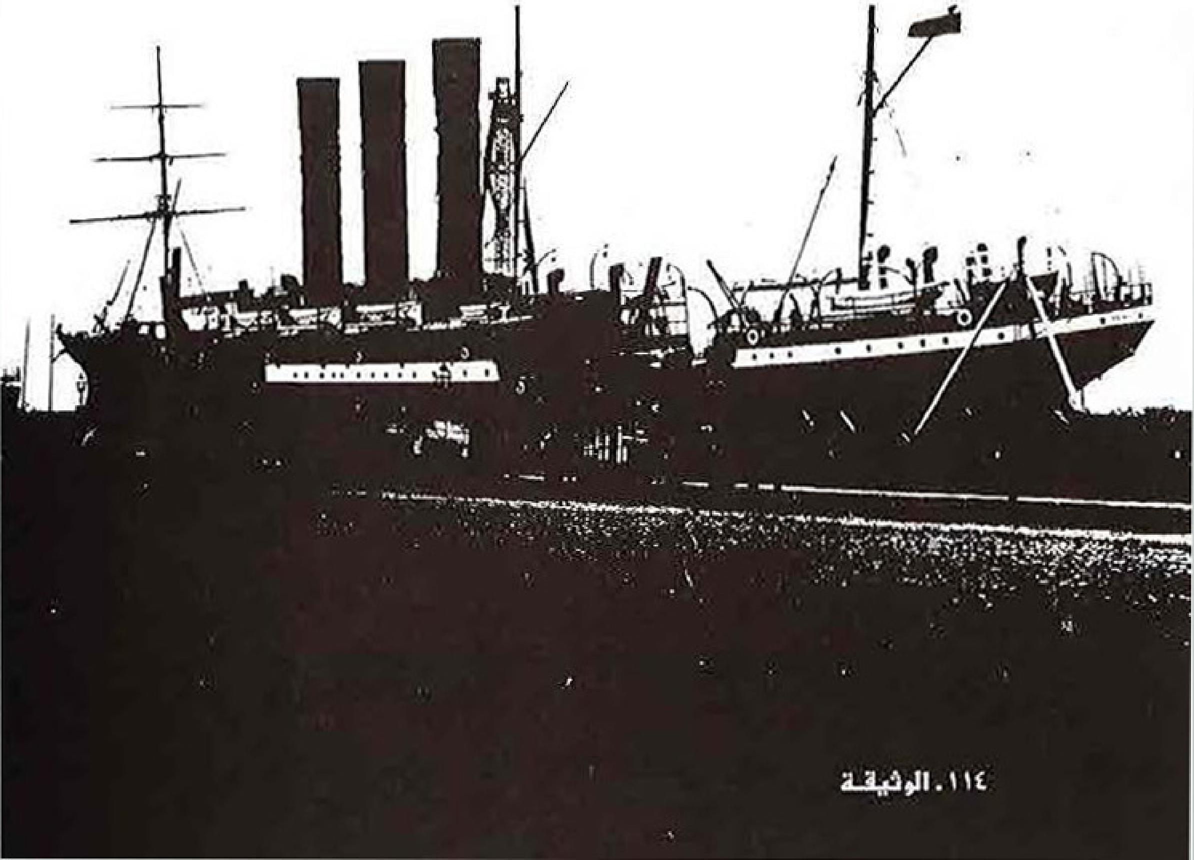
فسا : مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل وهي من الإقليم الرابع (الحموي، المصدر نفسه، جـ ٤، ص٢١٦ .

٤٨ – البلاذري، المصدر السابق، ص٣٩٥-٣٩٦ .

٤٩ – الطبري، المصدر السابق، ص١٧٥ .

النشاط الروسي

خلال القرن التاسع عشر



في الخليج العربي

بقلم : دكتور صبري فالح الحمدي

بدءاً، لابد من الإشارة إلى أن أبرز سمات تاريخ الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر يتمثل في التنافس الذي شهدته تلك المنطقة بين الدول الأوروبية وهو يهدف إلى إضعاف النفوذ البريطاني، ولذلك جاءت دراستنا المتواضعة هذه لتسلط الضوء على النشاط الذي قامت به إحدى تلك الدول وأعني بها روسيا، والدور الذي أدته في أحداث الخليج العربي في أثناء مدة البحث، ولتكون مكملة للدراسات التي ركزت في الغالب على تناول ذلك النشاط خلال احتدام صراع الدول الأوروبية للسيطرة على المنطقة وبخاصة في بداية القرن العشرين .

وإذا كنا قد حددنا مدة البحث في سنوات القرن التاسع عشر، فإن السبب في ذلك يعود إلى قلة الدراسات الأكاديمية التي تناولت النشاط الروسي في المدة المذكورة، ورغبة الباحث في متابعة أصول التوجهات الروسية صوب الخليج العربي ولأجل كشف الغموض الذي اكتنف بعض أوجه ذلك الدور الملحوظ الذي أسهم إلى حد ما في أحداث المنطقة وتطوراتها التي تسارعت بالسنوات الأخيرة بالقرن التاسع عشر .

وحقيقة الأمر فقد تميزت سنوات البحث في ممارسة روسيا ضغوطاً على شيوخ الخليج العربي والذين كانوا قد ارتبطوا باتفاقيات مع الحكومة البريطانية، فضلا عن تصاعد تلك الضغوط على الدولة الفارسية لكي لا تكون عائقاً أمام المجهودات الروسية بالوصول إلى المياه الدافئة والمراد بها الخليج العربي .

ممهدات النشاط الروسي ودوافعه في الخليج العربي حتى القرن التاسع عشر :

ترجع المصالح الروسية في الخليج العربي إلى القرن السادس عشر حينما أبدى القيصر الروسي رغبته في الاتصال بالهند عبر جنوب شرقي بلاده، إلا أن ذلك لم يتحقق، وتجددت هذه التطلعات خلال القرن الثامن عشر في عهد بطرس الكبير[١] Peter the Great (١٦٨٢-١٧٢٥)[٢] الذي أرسل بعثة تجارية إلى فارس عام ١٧٠٨م، ومن ثم تمكن من عقد اتفاقية تجارية مع الحكومة الفارسية عام ١٧١٧م نصت على منح روسيا حق شراء الحرير الفارسي[٣] .

من جانب آخر استغل بطرس الكبير أوضاع بلاد فارس المضطربة التي نجمت عن الغزو الأفغاني لها عام ١٧٢٢م وسقوط الدولة الصفوية، فقام بإرسال الجيوش التي نجحت في احتلال بعض المناطق الواقعة شمال فارس، والتي أكدتها معاهدة بطرسبرج الموقعة بين الجانبين عام ١٧٢٣م[٤]، ثم شهد عهد القيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٨٦م) ظهور فكرة غزو الهند التي حاول تحقيقها عام ١٨٠١م ابنها القيصر بول الأول Paul I (١٧٩٦-١٨٠١م) لكن لم تجد لها سبيلاً إلى التنفيذ، ومع ذلك فإن الانتصارات التي حققها القيصر الإسكندر الأول (١٨٠١-١٨٢٥م) على فارس عام ١٨١٣م، نتج عنها التوصل إلى عقد معاهدة كولستان التي عدت فاتحة النفوذ الروسي في بلاد فارس[٥] .

وإذا تناولنا دوافع النشاط الروسي في الخليج العربي نلحظ تزايد التوجهات الروسية نحو الوطن العربي ولاسيما منطقة الخليج العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأسباب عدة، منها سعي روسيا إلى تنويع الأسواق العالمية الملائمة لتصدير وبيع بضائعها ورغبة الروس التقليدية في الاطلاع على مناطقٍ جديدة في العالم وحياة الشعوب القاطنة فيها وعاداتها وتقاليدها، ومواجهة روسيا كلاً من فارس والدولة العثمانية اللتين كانت سياستهما تشكل خطراً مستمراً على الوضع الأمني في منطقة حدود روسيا الجنوبية(٦) .

ومن الجدير بالذكر أن بلاد الشرق ومن ضمنها فارس والمشرق العربي كانت مثار اهتمام خاص من جانب السياسة التقليدية لروسيا وهي تروم الوصول إلى المياه الدافئة، فالروس وعلى الرغم من اتساع إمبراطوريتهم وإشرافها على بحار ومحيطات مختلفة، إلا أنها بحار غير مفتوحة وقسم منها داخلي(٧)، مثالها بحر قزوين وبحر البلطيق التي لم تكن ذات نفع حقيقي لها، فبحر البلطيق متجمد معظم أشهر السنة، كما أن البحر الأسود من البحار الداخلية، الأمر الذي دفع روسيا إلى التوجه نحو فارس بحكم مجاورتها لحدودها الجنوبية وإشرافها على الساحل الشرقي من الخليج العربي(٨)، أما سواحل المحيط الهادي فهي بعيدة جداً عن قلب روسيا . لذا لا يمكن الوصول إلى المياه المفتوحة والدافئة كالخليج العربي إلا بصعوبة(٩) .

وتأسيساً على ذلك فإن روسيا كانت تسعى جاهدة لأن يكون لها منفذ على الخليج العربي وحاولت أن تنشئ ميناء لها على ساحليه الشرقي والشمالي، وخطت أولى خطواتها في هذا السبيل بأن ركزت على ميناء باطوم الواقع في الجنوب الشرقي من البحر الأسود ليكون مرحلة استهلالية لمد نفوذها إلى بغـداد والتسلل إلى شواطئ الخليج العربي(١٠) .

ومع ذلك فإن تطلعات القياصرة الروس لم تكن واضحة تجاه الخليج العربي طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأصبحت تلك التطلعات في نهاية ذلك القرن تهدف إلى إيجاد مراكز للروس على الخليج العربي تؤدي إلى مياه المحيط الهندي الدافئة، وعندئذ روجت الأوساط السياسية في حكومة الهند البريطانية أن روسيا تحاول تحقيق حلم القياصرة في الوصول إلى مياه الخليج العربي(١١)، التي رسمها بطرس الكبير في وصيته التي ورد فيها : توغلوا حتى تبلغوا سواحل الخليج العربي فتعيدوا الحياة إلى

الطرق التجارية القديمة مع الشرق الأدنى(١٢) . وعلى الرغم من أن الدراسات التاريخية أثبتت زيف هذه الوصية إلا أن كثيراً من الناس اعتبروها صادقة زمناً غير يسير(١٣) .

وفي سبيل تحقيق تلك الغاية لجأ الروس إلى استخدام أساليب كثيرة، منها إرسال البعثات المختلفة، فضلاً عن تقديم مشروعات مد الخطوط الحديدية، وكذلك قيام بعض قطعات الأسطول الروسي بزيارة بعض موانئ الخليج العربي. وكان من أولى مبادرات استطلاع الأوضاع واختيار قاعدة بحرية أن نظمت روسيا جملة من البعثات صبغتها بألوان مختلفة تفتيشية وتجارية وسياسية وعلمية وغيرها(١٤) . ومما يعزز ما ذهبنا إليه ما ذكرته الوثائق الروسية في الإشارة إلى وصول الكثير من الدبلوماسيين والمهندسين والأطباء والرحالة الروس إلى مناطق الخليج العربي، ودخول السفن الحربية موانئ الكويت وبندر عباس وبوشهر والبصرة ومسقط والبحرين(١٥) للتعرف على أصلح المناطق التي يمكن لروسيا أن تتخذها قواعد لتوسيع نفوذها في المنطقة. وإذا كانت الأخيرة قد برزت جهودها تلك على الساحل الشرقي للخليج العربي، فإنها بذلت الجهود المتتالية لكسب جانب المشيخات العربية القائمة على الساحل الغربي .

مظاهر النشاط الروسي في الخليج العربي

خلال القرن التاسع عشر

١ — النشاط الدبلوماسي :

بذلت روسيا جهداً دبلوماسياً من أجل إقامة قنصليات في مناطق الخليج العربي واستخدامها وسيلة للاتصال وإقامة العلاقات مع القوى المحلية ومحاولة التأثير عليها، فقد شهد عام ١٨٨٠م افتتاح أول قنصلية روسية في بغداد عقب وصول (ليف افجو ستوفتش أبارجارويت) القنصل الروسي إلى هذه المنطقة في الثالث من تشرين الثاني من العام نفسه وتسليمه والي بغداد العثماني (تقي الدين) الفرمان الخاص بتعيينه قنصلاً

لبلاده في هذا الجزء من الدولة العثمانية ، مما يشير إلى رغبة روسية في توسيع نفوذها باتجاه منطقة الخليج العربي ومقاومة التغلغل الألماني والوجود البريطاني هناك(١٦) .

أدرك القناصل الروس أهمية منطقة الخليج العربي لمصالح بلادهم وطبقاً لما أوردته المصادر الروسية عن أحداث ثمانينات القرن التاسع عشر، فقد قرر (بيوتر بونافيدين) وهو في طريقه لاستلام مهام عمله قنصلاً لبلاده في بغداد عام ١٨٨٦م أن يمر بموانئ المنطقة التي تنبأ بأنها ستكون في المستقبل القريب إحدى مجالات المنافسة بين الدول الأوروبية الكبرى، وينقل لنا هذا القنصل التطور الذي طرأ على عمل هذه القنصلية بقوله : "تغيرت طبيعة العمل إلى حد ما، استلمنا إمكانية الحصول على المعلومات الصحيحة من بعض أقاليم الفرس والدولة العثمانية وسلكنا طريقاً مستقلاً ولم نعد نعتمد على الصدفة كما كان يحدث من قبل، وأصبح باستطاعتنا الانتقال بالتدريج مع مراعاة الحذر من دور المراقب غير النشيط إلى المراقب الفعال بمعنى المواجهة للنفوذ البريطاني"(١٧) .

تصاعدت الأنشطة الروسية في العام التالي حين أوفدت الحكومة الروسية الكابتن فونبلومر (Vonblumer) في ربيع ١٨٨٧م للقيام بجولة تفقدية بالمنطقة، إذ قام بزيارة كل من أصفهان وشيراز وبوشهر وناقش بصراحة سياسة بلاده المعادية للمصالح البريطانية، كما طالب بعقد اتفاق روسي مع فارس لاتخاذ موقف موحد في مواجهة الوجود البريطاني(١٨) .

ولأجل الحفاظ على المصالح الروسية في الخليج العربي والعمل على تطورها، طرح (كروجلوف) القنصل الروسي في بغداد منذ عام ١٨٨٩م مسألة توسيع شبكة القنصليات العاملة هناك، وذلك وفقاً لوثائق أرشيف السياسة الخارجية الروسية في موسكو وهي تتضمن المراسلات المتداولة في نهاية القرن التاسع عشر بين ممثلي المفوضيات وتقارير الرحالة، والوكلاء الروس، وأيضاً تقارير قباطنة السفن الحربية، وكلها تشير على ضرورة توسيع عمل هذه القنصليات، وقد تم افتتاح بعضها في البصرة وبوشهر في المدة نفسها، وهو ما يعد مؤشراً على تحقيق نجاحات في ميدان الدبلوماسية الروسية وعملها في الخليج العربي(١٩)، وعبر عن هذه التوجهات ماشكوف (١٨٩٥-١٨٩٨م) القنصل الروسي في بغداد بمذكرة بعث بها عام ١٨٩٦م إلى سفير بلاده في القسطنطينية، مؤكداً على وجوب

إنشاء مثل هذه الشبكة من القنصليات الروسية بغية المحافظة على مصالحهم المتنامية في تلك المناطق[٢٠].

ويمكننا التركيز هنا على عام ١٨٩٦م بوصفه قد شهد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين روسيا والكويت علماً أنه زار الكويت في هذا العام بالذات ولأول مرة دبلوماسي روسي ألا وهو القنصل الروسي في بغداد (ماشكوف) وأقيمت بين الدولتين علاقات وثيقة جداً بعد تولي الشيخ مبارك الصباح (١٨٩٦-١٩١٥م) زمام الحكم في الكويت[٢١].

مقابل ذلك أبدت الحكومة الروسية اهتماماً لإنشاء قنصليات لها في الساحل الشرقي من الخليج العربي، ففي عام ١٨٩٨م حاول دابيجا (Dapige) القنصل الروسي في أصفهان وبوشهر أن يؤسس وكالات قنصلية في بندر عباس والمحمرة، وأشيع في الوقت نفسه بأنه سيقوم بمسح هرمز ليرى إمكانية صلاحيتها مخزناً للفحم الروسي في الخليج العربي[٢٢].

يتضح لنا مما تقدم أن النشاط الدبلوماسي أخذ حيزاً طيباً من الفعاليات الروسية الهادفة إلى إيجاد مناطق نفوذ لها في عموم مناطق الخليج العربي، بدليل إقامة العديد من القنصليات في المدن والموانئ بوصفها إحدى الوسائل التي تساعد روسيا في الإبقاء على مصالحها، والعمل على إزاحة أو التقليل من منافسة القوى الأوروبية وفي المقدمة منها بريطانيا التي أدركت بدورها المخاطر التي تترتب على اتساع النفوذ الروسي فراحت تتصدى له بالوسائل المتاحة.

٢ – مشاريع السكة الحديد :

كانت مسألة مشاريع السكة الحديد مهمة للروس بقدر أهمية إيجاد قاعدة بحرية لهم في الخليج العربي، ذلك لأن السكة الحديد كانت هي أداة الربط بين الأراضي الفارسية من جهة والقاعدة المنشودة في الخليج العربي، بخاصة وأن البريطانيين في فارس كانوا يقفون في وجه هذه المشروعات التي تشكل في نظرهم تهديداً لوجودهم السياسي والتجاري[٢٣]، ومما يؤكد ذلك تردد عدد من المهندسين والفنيين الروس إلى موانئ المنطقة بغية قيامهم بدراسة طرق السكة الحديد المتجهة إلى الخليج العربي[٢٤].

ولعل في حصول الروسي تانكريد (Tancred) على امتياز من الدولة العثمانية في آذار (مارس) ١٨٨٣م لمد سكة حديد من طرابلس على البحر المتوسط إلى البصرة الواقعة شمال الخليج العربي ما يؤيد ما ذهبنا إليه، غير أن هذا المشروع لم يخل من الأحلام السياسية، إذ أراد تانكريد أن يخرج اليهود من روسيا ويوطنهم على جانبي السكة الحديد، لكن معارضة الحكومة العثمانية لمثل هذا المشروع ووفاة تانكريد نفسه أديا إلى قبر المشروع[٢٥].

تزايدت الدعوات إلى ربط منطقة الخليج العربي بشبكة من مشاريع السكة الحديد وإقامة قواعد روسية فيها، فقد وضع الكونت دي وايت (De Witte) وزير المالية الروسي برامج اقتصادية واسعة لتنفيذها في فارس، وتركزت على مشاريع بناء سكة حديد[٢٦]، إذ وصل المهنس سابيينزا (Sapienza) إلى فارس لإقناع ناصر الدين شاه (١٨٤٨-١٨٩٦م) حاكم فارس بإنشاء سكة حديد تمتد من بحر قزوين إلى الخليج العربي لاتخاذها قاعدة بحرية لإيصال البضائع الروسية إلى موانئ المنطقة وإظهار قوة روسيا البحرية، إلا أن نفي ناصر الدين شاه للمشروع أفشل مساعي سابيينزا[٢٧].

شهد عام ١٨٨٩م ظهور مقالة هامة في جريدة (فيدوموستي) التي تصدر في سان بطرسبرج بقلم أحد المسئولين الروس تطالب صراحة بالحصول على ميناء بندر عباس، فضلاً عن قشم وهنجام ولارك وهرمز لتكون نهاية خط حديدي يمتد من روسيا عبر فارس، وأشار كاتب المقال بشكل خاص إلى المزايا الكاملة لهذه المناطق، مما يوضح أن المقال كان يستند إلى معلومات دقيقة[٢٨]، ويؤكد الأهداف التي تطمح روسيا لتحقيقها في الخليج العربي عبر حرصها على إقامة مشاريع السكة الحديد.

امتد النشاط الروسي أواخر القرن التاسع عشر إلى ولاية بغداد وما حولها من أراضي الدولة العثمانية، إذ وضع فلاديمير كابنست[٢٩] (Voladimir Kapnist) رجل الأعمال الروسي مشروعاً لإنشاء خط حديدي يمتد من طرابلس على البحر المتوسط وينتهي إلى الكويت بهدف ربط الخليج العربي بالبحر المتوسط[٣٠]، وتضمن الامتياز الذي قدم بشأنه طلباً إلى الدولة العثمانية الحق في استثمار المناجم المعدنية الواقعة ضمن خمسين كيلومتراً من الخط وتنفيذ المشاريع الإروائية في المناطق المحاذية لأنهار دجلة والفرات وشط العرب[٣١].

وتمثل موقف الدولة العثمانية في إحالة السلطان عبد الحميد (١٨٧٨–١٩٠٩م) المشروع إلى وزير الأشغال العمومية لدراسته، ولم يعط الوزير جواباً محدداً بسبب الملابسات المعقدة التي كانت تمر بها العلاقات بين الدولة العثمانية والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت، ويبدو أن المبعوث الروسي نجح في الحصول على موافقة الدولة رسميا على طلبه في الثلاثين من كانون الأول ١٨٩٩م، وفي اعتقادنا أن ذلك المشروع هو الذي حفز بريطانيا على الإسراع في عقد اتفاقية عام ١٨٩٩م مع شيخ الكويت بعد أن كانت تتلكأ في إقرارها من قبل[٣٢]، فيما تشير المصادر الأوروبية إلى أن سبب إهمال المشروع يعود إلى معارضة السفيرين البريطاني والألماني في العاصمة العثمانية، حيث شجعا الباب العالي على رفضه، فضلاً عن عدم امتلاك روسيا الإمكانات المادية لدعم المشروع من جهة، وتوجس العثمانيون خيفة من النفوذ الروسي في امتلاك دولتهم من جهة أخرى[٣٣].

وعلى الرغم من تعثر تنفيذ مشاريع السكة الحديد الروسية التي كان من المؤمل أن تربط الأراضي الروسية بمناطق الخليج العربي، لكن ذلك لم يثن الروس عن المضي في محاولة تنفيذ مخططاتهم، ومن ثم اتجهوا إلى الإكثار من تسيير سفنهم عبر مياه الخليج العربي والاستمرار في ممارسة فعالياتهم السياسية والتجارية في أماكن أخرى من المنطقة كلما توافرت الظروف المناسبة لها.

٣ – النشاط السياسي والتجاري في عمان وهرمز والكويت :

أدى عقد الحكومة البريطانية معاهدة مع فيصل بن تركي إمام عمان (١٨٨٨–١٩١٣م) في العشرين من آذار (مارس) والتي رسخت النفوذ البريطاني في بلاده، عبر تعهد إمام عمان بعدم توثيق علاقاته مع الدول الأوروبية الأخرى إلى حدوث تقارب روسي–فرنسي لمواجهة تزايد المصالح البريطانية في عمان ومتهمين الحكومة البريطانية بخرق بيان عام ١٨٦٢م الخاص باستقلال عمان[٣٤]، وقد حاولت روسيا الإفادة من هذا التحالف بهدف الاتصال بالمراكز الرئيسية في الخليج العربي والعمل على توطيد العلاقات معها، وبالفعل تمكنت من استخدام ميناء مسقط لغرض تزويد السفن الروسية بالفحم

الحجري، إذ وصل الطراد نيزني – نوفجورود (Nizhny-Novgorod) إلى مسقط، وقابل ضباطه فيصل بن تركي وأجروا مباحثات سرية لإشعاره بمساندتهم لإمام عمان في مناوأته للبريطانيين عبر تأكيد الدعم الروسي، ومن ثم عرضوا عليه عقد اتفاقية خاصة، إلا أن فيصل بن تركي كما تجمع أغلب المصادر التاريخية لم يستجب للعرض بسبب ارتباطه بمعاهدة مع الحكومة البريطانية عام ١٨٩١ وخشيته من رد فعل الأخيرة(٣٥).

أخذت السفن الروسية تتردد على موانئ الخليج العربي لأجل التجارة والبحث عن مراكز يمكن أن تتخذ محطات لترسيخ الوجود الروسي في المنطقة، ففي ربيع عام ١٨٩٥م جاء ضابط روسي لمعاينة جزيرة هرمز لغرض إنشاء مستودع فحم هناك، ولكن بريطانيا اعترضت على الزيارة وبالتالي لم تحقق هذه المحاولة الروسية أهدافها المرجوة(٣٦).

وعلينا التذكير أن الأنشطة الروسية الرامية إلى إيجاد مصالح اقتصادية لها في الخليج العربي لم تكن أمراً في الإمكان تحقيقه دون إقامة قواعد ووكالات تجارية، وهو ما سعت إليه روسيا ودأبت على الوصول إليه أواخر القرن التاسع عشر، واتخذت هذه الرغبة – في بادئ الأمر – شكل الدعوة إلى إيجاد أسواق للبضائع الروسية بالمنطقة ومنافسة القوى الأخرى وبخاصة بريطانيا في هذا الميدان وإرسال البعوث التجارية إلى موانئ الخليج العربي من أجل إقامة العلاقات التجارية معها والعمل على تطورها(٣٧).

حظيت الكويت باهتمام روسيا التي كانت تدخل في نطاق محاولاتها ترسيخ وجودها في الخليج العربي، بدليل زيارة قناصلها في بغداد والبصرة وبوشهر لحاكم الإمارة الشيخ مبارك الصباح وبذل غاية جهدهم لإقناعه بالفوائد التي يمكن أن يجنيها من صداقة روسيا له(٣٨)، ومما يعزز ذلك اتخاذ كروجلوف (Kruglow) القنصل الروسي في بغداد إجراء فيما يخص مشروع بناء قاعدة بحرية في المنطقة، وكانت الكويت على ما أظهرته الوقائع التاريخية هي المنطقة التي وقع عليها اختيار روسيا في الجانب الغربي من الخليج العربي في ناحيته الشمالية، فقد دعا في كانون الثاني ١٨٩٩م إلى إنشاء محطة فحم روسية في المنطقة، ومن ثم وجه أنظاره إلى الكويت لاتخاذها مستودعاً للفحم لتزويد سفنهم البحرية العاملة في الخليج العربي بالوقود(٣٩).

أثارت هذه الدعوة الروسية البريطانيين الذين كانوا مترددين في الاستجابة لرغبة شيخ الكويت بالحصول على الحماية خشية أن يسيء ذلك إلى العلاقات البريطانية –

العثمانية، غير أن هذا التردد سرعان ما انتهى عندما تبلور موقف بريطاني يتلخص بضرورة الإسراع في الاستجابة لمطلب شيخ الكويت وتوقيع اتفاقية ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٩ لتفويت الفرصة على الروس، خصوصاً بعد أن ساد الاعتقاد بأنهم حصلوا من الباب العالي على إذن في إقامة خط حديدي يمتد من البحر المتوسط حتى الخليج العربي، وخشي البريطانيون من نجاح الروس باستغلال ذلك لإيجاد مصالح إقليمية لروسيا في الكويت[٤٠] .

كان من الطبيعي أن تتباين وجهات النظر الروسية والبريطانية في تحليل دوافع عقد الاتفاقية الكويتية – البريطانية عام ١٨٩٩م، إذ فندت المصادر الروسية ما أوردته المصادر البريطانية من أن شيخ الكويت وليست الحكومة البريطانية هي التي بادرت إلى عقدها لأنه كان يبحث عمن يحميه من الخطر الروسي، فيما أرجع ولسون المعبر عن وجهة النظر البريطانية ذلك إلى تزايد النشاط الروسي بوصفه قد حفز بريطانيا على أن تعيد النظر بموقفها وتتخذ إجراءات لمواجهة النفوذ الأجنبي في الكويت[٤١] .

لم يكد يعلم الروس بخبر عقد الاتفاقية الكويتية – البريطانية حتى احتجوا على البريطانيين بوصف ذلك يعد عملاً معادياً موجهاً ضد روسيا القيصرية، لمنعها من تحقيق مشروع سكتها الحديدية الممتدة إلى الكويت التي تحتل موقعاً جغرافياً مهماً شمال الخليج العربي، وهاجمت الصحف الروسية السلطات البريطانية وقد اتهمها المسؤولون الروس بتجاهل مصالح بلادهم المتنامية في المنطقة، وتحديهم للعثمانيين داعين إلى اتخاذ مواقف متشددة ضد البريطانيين، وعلى الجانب الآخر سعت روسيا للعمل على استمالة الكويت وكسب مودتها، فأوفدت مبعوثين إليها متظاهرين بالرغبة في التجارة أو الحرص على مكافحة الطاعون، كما بعثوا بقنصلهم في بوشهر أوفسيينكو لمقابلة الشيخ مبارك الصباح وإقناعه بعقد اتفاق مع بلاده يكون أكثر ملاءمة من اتفاقه مع البريطانيين، لكن الشيخ مبارك لم يقبل بذلك[٤٢] .

وعلى الصعيد العملي ردت روسيا على عقد الاتفاقية المذكورة بإقدامها بالاستيلاء على ميناء بندر عباس بما فيه الجزر الواقعة في مضيق هرمز، على أساس أن ذلك يجعل من هذه المنطقة نهاية لسكة حديد كان من المأمول أن تنشئها عبر فارس[٤٣] .

مقابل ذلك استمرت حركة توافد التجار الروس إلى الكويت، وأشارت الوثائق الروسية إلى زيارة (أفاناسييف) أحد كبار التجار شهرة إلى الكويت بمبادرة من (كروجلوف) القنصل الروسي الذي يمكن وصفه بأحد رواد تعزيز العلاقات التجارية بين الجانبين[٤٤].

وحقيقة الأمر أن بريطانيا كانت ترصد وتراقب عن كثب التحركات الروسية عبر أنشطتها المختلفة من خلال حكومة الهند أو المقيم البريطاني في الخليج العربي، وظلت حريصة على إفشال التحركات الروسية توكيداً لحقيقة أعلنتها بريطانيا باعتبار الخليج العربي بحيرة بريطانية لا يسمح لأية قوة أوروبية أو إقليمية بغرض سيطرتها عليه ومنافسة الوجود البريطاني هناك.

٤ – البعثات الطبية :

شهدت منطقة الخليج العربي زيارات بعض الأطباء الروس إليها في مهمات أعلن أنها ذات طابع طبي كالحجر الصحي والوقاية من مرض الطاعون وعلاج المرضى، وربما اتخذ هؤلاء من الطب والعلاج ستاراً يخفون به أهدافهم السياسية، وأشار المقيمون السياسيون البريطانيون إلى عدم حقيقة وجود تلك الأنشطة[٤٥]، وبحجة الخوف على الرعايا الروس من الطاعون الغددي الذي كان منتشراً في الهند عام ١٨٩٦م، وصلت مجموعة من الأطباء لدراسة هذا المرض في بوشهر والعمل على منع انتقاله إلى مناطق أخرى على الرغم من أن المرض لم يكن قد ظهر بعد في تلك المدينة، فتحت ذريعة الدراسة الصحية كان الأطباء من الضباط يقومون بزيارات متكررة إلى كل من بندر عباس والبصرة، الأمر الذي أثار شكوك الحكومة الفارسية التي نقلتها رسمياً إلى السلطات البريطانية[٤٦] وأوردت المصادر التاريخية ممارسة الدكتور شيفانوسكي (Chevanowsky) التطبيب في بوشهر مجاناً، وترى السلطات البريطانية في الخليج العربي أنه كان يسأل مرضاه في الشئون المحلية[٤٧].

وفي الواقع أن هذا المرض الذي انتشر في الهند عام ١٨٩٦م لم يظهر في الخليج العربي إلا في عام ١٨٩٩م، بينما بدأت روسيا في إرسال البعثات الطبية منذ عام

١٨٩٧م[٤٨]، ومما يؤكد ذلك ما ذكرته المصادر البريطانية في الإشارة إلى تعيين روسيا ممثلية طبية لها متظاهرة عام ١٨٩٧م لدراسة الوباء المذكور في بوشهر[٤٩]، وأن الأخيرة تعمل على اتخاذ بندر عباس مركزاً صحياً لها، مما أثار قلق السلطات البريطانية[٥٠]. وينقل لنا لوريمر المعبر عن وجهة النظر البريطانية تفاصيل ذلك بقوله : "أرسل خبيران طبيان روسيان عام ١٨٩٧م هما أوست ومبر وكان الأخير يشغل منصب طبيب البعثة الدبلوماسية الروسية في طهران لدراسة مرض الطاعون في بوشهر التي لم يكن الوباء قد انتشر فيها في ذلك الوقت وهي لم تعرفه إلا بعد سنتين من ذلك التاريخ. ثم لحق بهذين طبيبان آخران في العام التالي هما رودز فيتس وكورناجفسكي وبعده لحق بالأخيرين الطبيب باتشوكوفسكي الذي كان قد اتخذ من بوشهر مقراً له خلال سنتي ١٨٩٨ و١٨٩٩م[٥١].

والذي يمكن استخلاصه من السطور السابقة المتعلقة بنشاط روسيا في مجال البعثات الطبية هو رغبة روسيا في الحصول على مكان ملائم لإقامة قاعدة لها في الخليج العربي. تكون أساساً للأنشطة التجارية والسياسية ومنطلقاً إلى مناطق أخرى مجاورة عبر تحركات مبعوثيها إلى مدن وموانئ المنطقة أملاً في تحقيق الأهداف الروسية.

٥ - النشاط العسكري ومحاولات إقامة قواعد بحرية والعلاقة مع إمارة عربستان :

بذلت روسيا جهوداً عسكرية مطردة في منطقة الخليج العربي تمثلت بزيارة العديد من ضباطها لفارس والتجول في مدنها كأصفهان وشيراز وكرمان وبوشهر وبندر عباس، وحرص هؤلاء في التعرف على تلك المناطق كمظهر من مظاهر التفوق الروسي في تلك البلاد من ناحية، ولدراسة أمثل الطرق وأنسبها للمشاريع الروسية المختلفة التي تكفل لروسيا وحدها أمر السيطرة على جميع مقدرات الدولة الفارسية من ناحية أخرى،فضلاً عن إرسال روسيا العديد من السفن الحربية لإثارة القلق لدى البريطانيين الذين كان لهم نفوذ متسلط في المنطقة ولجذب الشيوخ العرب إليها[٥٢].

وفي الوقت نفسه دأبت روسيا على إنشاء قواعد بحرية في مناطق الخليج العربي عن طريق المباشرة في إقامة مشاريع للملاحة، وأشارت المصادر التاريخية إلى تأسيس شركة بوجنهوف (Bognhoifk) للملاحة في بندر عباس الواقعة على الساحل الشرقي في نيسان ١٨٨٦م لتتولى تنفيذ تلك المشاريع خدمة لمصالحها[٥٣]، وكان نشاط الروس هناك يفوق نشاطهم في الساحل الغربي من الخليج العربي، وقد احتلت بندر عباس في كل هذا اهتماماً خاصاً من لدن السياسة الروسية، إذ وجد الروس أنها أفضل قاعدة يمكن أن تتيح لهم الاتصال بالبحار الدافئة، ومما زاد من مخاوف بريطانيا أن ممثلية روسية فتحت في ذلك الوقت في بوشهر وأسندت أمورها إلى مقيم سياسي روسي، وأن هناك اتفاقاً تجارياً سرياً قد عقد بين روسيا وفارس تضمن تخفيض الرسوم الجمركية على صادرات روسيا إلى فارس وتعهدت روسيا بالإشراف على تنظيم شـئون الجمارك الفارسية[٥٤].

من جانب آخر شهد ربيع عام ١٨٩٥م رحلة ضابط مهندس روسي إلى هرمز عن طريق بندر عباس وعمل هناك على مسح الجزيرة، وبعد مغادرته بيومين أعلن أن الأخيرة ستصبح مستودعاً للفحم خاصة للسفن الروسية التي تجوب مياه الخليج العربي[٥٥].

على أن ما يمكن ملاحظته استغلال روسيا المصاعب التي واجهت منافستها بريطانيا في حرب جنوب أفريقيا[٥٦] (١٨٩٩-١٩٠٢م) لتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية في الخليج العربي وعلى حساب بريطانيا، فاتخذت سياستها الجد لبلوغ تلك الغايات، فبعد نشوبها بفترة قصيرة نوهت الصحف العثمانية الصادرة في القسطنطينية عن وجود مشاريع روسية للسيطرة على جزيرة قشم ذات الأهمية الجغرافية في المنطقة[٥٧]، من خلال توصل روسيا إلى اتفاق مع مظفر الدين شاه (١٨٩٩-١٩٠٠م) حاكم فارس في الخامس عشر من آذار ١٨٩٩م، إلا أن مورايیف (Mouraieff) وزير الخارجية الروسي نفى وجود نية لبلاده في احتلال تلك الجزيرة أو أي موقع آخر في الخليج العربي[٥٨].

ومن الجدير بالذكر أن إمارة عربستان لم تكن بعيدة عن الاهتمام الروسي في أواخر القرن التاسع عشر، ففي الوقت الذي كان فيه النشاط الروسي يجري على أشده بامتداد الساحل الغربي للخليج العربي في الكويت والبحرين ومسقط، فإن زيارة المسئولين الروس لم تنقطع عن منطقة عربستان منتهزين فرصة الضغوط الروسية، إذ زارها القنصل العام في

أصفهان عام ١٨٩٩م لإقناع شيخها خزعل (١٨٩٧-١٩٢٥م) بالسماح لروسيا في استخدام أحد موانيها المطلة على الخليج العربي، وقد مورست ضغوط عليه حتى نجحت روسيا في تعيين وكيل يمثل مصالحها هناك، فضلاً عن استمرار الضغوط الفارسية على عربستان لوضع عوائدها تحت إشراف الدولة الفارسية[٥٩].

استنتاجات البحث :

توصل البحث إلى جملة استنتاجات يمكن تلخيصها بما يأتي :

أولاً : أن سنوات القرن التاسع عشر وهي مدة موضوع البحث عن النشاط الروسي في الخليج العربي تعد الفترة الحقيقية لنفوذ القياصرة وتطوره في المنطقة لأسباب يتعلق بعضها بأوضاع روسيا الداخلية وانشغالها بحروب في أوروبا في المدة السابقة، والأخرى المتصلة بوجود معارضة بريطانية قوية لكل أشكال التغلغل الروسي السياسية والاقتصادية والبحرية، والنابعة من وجود ثوابت في السياسة البريطانية ترتكز على توكيد حقيقة أن الخليج العربي هو بحيرة بريطانية لا يجوز لأية قوة أوروبية أو إقليمية فرض سيطرتها عليه ومنافسة بريطانيا، وهو الأمر الذي نجحت في تحقيقه الأخيرة عقب انتصارها على قبيلة القواسم العربية عام ١٨١٩م، وما تبع ذلك من عقدها المعاهدات مع شيوخ الخليج العربي في السنوات اللاحقة .

ثانياً : يمكن القول أن هناك عوامل عدة وهي مرتبطة بوضع الدولة الروسية أسهمت إلى حد ما في إضعاف النشاط الروسي في الخليج العربي، يأتي في مقدمتها عدم امتلاك روسيا أسطولاً بحرياً متواجداً بشكل دائم في مياه المنطقة، فضلاً عن قلة قنصلياتها التي تتولى جمع المعلومات عن أوضاع المشيخات العربية، وافتقارها إلى خطوط للبرق تربطها بموانئ الخليج العربي، وقد انعكس كل ذلك سلباً على المجهودات الروسية التي واجهت صعوبات أثرت في إخفاقها، وهو ما أفسح المجال واسعاً أمام بريطانيا للانفراد وترسيخ وجودها، ومن ثم اضطرت روسيا إلى الاعتراف بالسيادة البريطانية على عموم المنطقة .

ثالثاً : ومع الإقرار بعدم تحقيق روسيا نجاحات ملموسة على صعيد أهدافها التي أشرها البحث وتضمنتها محتوياته صوب مناطق الخليج العربي، لكن النشاط الروسي لم يتوقف بل تصاعد مع إطلالة القرن العشرين على أثر تزايد المشاريع الألمانية الخاصة بمد سكة حديد برلين – بغداد التي تقرر أن تكون نهايتها في شمال الخليج العربي عند الكويت، وتناولت هذه الفعاليات الروسية دراسات أكاديمية وبحوث منشورة غطت المدة المذكورة بشيء من التفصيل، بدليل أن الاستراتيجية الروسية وضعت برامج أكثر فاعلية لها وعليه نشطت الدبلوماسية الروسية في تنفيذها، فلا غرابة أن تشهد المدة اللاحقة تحركاً روسياً غير اعتيادي أطلق عليه (لوريمر) "سلسلة من المظاهرات البحرية الروسية التي تستهدف أغراضاً سياسية" .

د. صبري فالح الحمدي
كلية التربية – الجامعة المستنصرية ـ بغداد

الهوامش

١ – بطرس الكبير : عدّه المؤرخون مؤسس الدولة الروسية الحديثة، كان هدفه حصول بلاده على منفذ بحري ؛ لمزيد من التفاصيل ينظر : محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية (١٥٠٠–١٧٨٩م) بغداد ١٩٨٢م، ص٤١٨–٤١٩ .

٢ – محمود علي الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٨٩٠–١٩٦٤م، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١م، ص٢٦ .

٣ – محمد وصفي أبو مغلي، إيران . . دراسة عامة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥م، ص٢٥٦ .

٤ – دونالـد ولبر، إيـران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، القاهرة ١٩٥٨م، ص٩٠ .

٥ – جورج لونشوفسكي، الشرق الأوسط في الشئون العالمية، ترجمة جعفر الخياط، جـ ١، بغداد (د.ت) ص٦١ .

٦ – يفجيني سيدوروف، تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية الروسية بدول المنطقة، مجلة الوثيقة، البحرين، مركز الوثائق التاريخية، العدد ٣٢، السنة ١٦، ١٤١٧هـ/يوليو (تموز) ١٩٩٧م، ص٦٣ .

٧ – طارق نافع الحمداني، العثمانيون والروس في الخليج العربي . . دراسة في العلاقات السياسية بينهما ١٨٧٨–١٩٠٧م، مجلة الوثيقة، العدد ١٦، السنة ٨، جمادى الثانية ١٤١٠هـ/يناير (كانون الثاني) ١٩٩٠م، ص٨٦ .

٨ – W. Morgan Shuster, The Strangling of Persian, London, 1912, P.227.

٩ – طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٨٦ .

١٠ – قدري قلعجي، الخليج العربي، بيروت، دار الكاتب العربي، ١٩٦٥، ص٤٦٠–٤٦١ .

١١ – طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٨٦–٨٧ .

١٢ - Quoted in Sir Percy Sykes; History of Persia, Vol. II, London, 1951, P. 254.

١٣ - طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٨٧ .

١٤ - مصطفى عبد القادر النجار، دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨م، ص٦٩-٧٠ .

١٥ - ينظر : الفيرا فاراخوفا، المراسلات الدبلوماسية والمراسلات الشخصية المتعلقة بمسقط من خلال الوثائق التاريخية بأرشيف السياسة الخارجية لإمبراطورية روسيا في موسكو لعام ١٩٠٢-١٩٠٥، مجلة الوثيقة، العدد ٤٦، السنة ٢٣، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ/يوليو (تموز) ٢٠٠٤م، ص١٠٦ .

١٦ - ينظر : ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، جـ ١، ترجمة ديوان أمير قطر، الدوحة (د.ت) ص٤٥١ ؛ الفيرا فاراخوفا، المصدر السابق، ص١٣٢ .

١٧ - الفيرا فاراخوفا، المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٤ .

١٨ - بدر الدين عباس الخصوصي، الخليج العربي والمطامع الاستعمارية، مجلة كلية الآداب والتربية، العددان الثالث والرابع، جامعة الكويت، حزيران (يونيو) ١٩٧٣ - جمادى الأولى ١٣٩٣هـ - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣م - ذو القعدة ١٣٩٣هـ، ص٢٤٣-٢٤٤ .

١٩ - الفيرا فاراخوفا، المصدر السابق، ص١٠٧-١٠٨ .

٢٠ - يفجيني سيدوروف، المصدر السابق، ص٦٧ .

٢١ - المصدر نفسه، ص٧٤ .

٢٢ - طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٩٠ .

٢٣ - طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص١٠١ .

٢٤ - Briton Cooper, Busch, Britain and the (Persian) Gulf (1894-1914) University California Press, P. 117.

٢٥ - علي أباحسين، لمحة حول العلاقات التاريخية بين روسيا ودول الخليج، مجلة الوثيقة، العدد ٣٥، السنة ١٨، رمضان ١٤١٩هـ/ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩م، ص٣٧ .

٢٦ - ينظر : مصطفى عبد القادر النجار، المصدر السابق، ص٧٠ .

٢٧ - J.A. Saldanha; The (Persian) Gulf Precis, Vol. VIII, Archive Editions Simail, 1986, P. 1.

٢٨ - طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٨٨ .

٢٩ - فلاديمير كابنست : وهو ابن أخ السفير الروسي في فيينا، وكان من رجال الأعمال الروس .

٣٠ - صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥م، ص٢٢٣-٢٢٤ .

٣١ - Ravinder, Kumar, India and the (Persian)Gulf Region (1858-1907), India, 1965, P.140-142.

٣٢ - ينظر : مصطفى عبد القادر النجار، المصدر السابق، ص٧٢ .

٣٣ - Edward Meau Earle; Turkey the Great Powers and the Baghdad Railway, New York, 1966, P. 58.

٣٤ - لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٠، ص٤١٥ .

٣٥ - مصطفى عبد القادر النجار، المصدر السابق، ص٧٠-٧١ .

٣٦ - Dr. Ali Abahussain, Russian Saud Kwait and Oman relations.

بحث منشور باللغة الإنجليزية، مجلة الوثيقة، العدد ٤٧، السنة ٢٤، ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٥م، ص١٨٢ .

٣٧ - طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٩٠-٩١ .

٣٨ - جمال زكريا قاسم، الخليج العربي . دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤م، القاهرة ١٩٦٦م، ص٣٩٩ .

٣٩ - J.C. Huerwitz; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. 2, New York, 1926, P. 231.

طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٨٩ .

٤٠ - بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، جـ٢، الكويت، منشورات ذات السلاسل (د.ت)، ص١٥٥ .

٤١ – نقلاً عن بونداريفسكي، سياستان إزاء العالم العربي، ترجمة خيري الضامن، موسكو، دار التقدم، ١٩٧٥م، ص٦٧ .

٤٢ – بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات، ص١٥٦ .

٤٣ – ينظر : جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٣٩٩ .

٤٤ – يفيجيني سيدوروف، المصدر السابق، ص٧٥ .

٤٥ – علي أباحسين، لمحة حول العلاقات التاريخية، ص٣٢ .

٤٦ – بدر الدين عباس الخصوصي، الخليج العربي والمطامع الاستعمارية، ص٢٤٤ .

٤٧ – عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي (١٨٩٩–١٩٤٧)، دراسة وثائقية، الرياض، دار المريخ للنشر، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٨٠ .

٤٨ – علي أباحسين، لمحة حول العلاقات التاريخية، ص٣٢ .

٤٩ – أرنولدت، ويلسون، الخليج العربي، ترجمة عبد القادر يوسف، مكتبة الأمل، الكويت(د.ت) ص٤١٥ .

٥٠ – H.J. Whigham; The Persian Problem, London, 1903, P. 56.

٥١ – لوريمر، المصدر السابق، ص٩٤٥ .

٥٢ – بدر الدين عباس الخصوصي، النشاط الروسي في الخليج العربي (١٨٨٧–١٩٠٧م)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد ١٨، السنة ٥، نيسان (أبريل) ١٩٧٩م/ربيع الثاني ١٣٩٩هـ، ص١١٤–١١٥ .

٥٣ – علي أباحسين، ب.ك. نارين، لمحة في بعض الوثائق التاريخية حول العوامل المؤثرة على المصالح الاقتصادية البريطانية في الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد ١٣، السنة ٧، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م، ص٢١ .

٥٤ – مصطفى عبد القادر النجار، المصدر السابق، ص٧٥–٧٦ .

٥٥ – ويلسون، المصدر السابق، ص٤١٥ .

٥٦ – وهي المسماة بحرب البوير التي نشبت بين بريطانيا وكل من جمهورية جنوب أفريقيا وولاية أورنج بسبب النزاع بشأن استثمار مناجم الفحم في أفريقيا، وتمكن القائد كتشنر من فرض

سيطرة بريطانيا على جنوب أفريقيا. للاستزادة يمكن الرجوع إلى : محمد عبد العزيز عمر، أوروبا (١٨١٥-١٩٠٥) الإسكندرية (د.ت) ص٣٢٢-٣٢٥ .

٥٧ – نوري عبد البخيت، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مجلة الخليج العربي، العدد ٦، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٧٦، ص٥٩-٦٠ .

٥٨ – Briton Cooper Busch; Op.Cit., P.110-121.

٥٩ – لمزيد من التفاصيل ينظر : بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات، ص١٦٠-١٦١ .

قائمة المصادر

أولاً : الكتب العربية والمعربة :

١ – أرنولدت، ويلسون، الخليج العربي، ترجمة عبد القادر يوسف، الكويت، مكتبة الأمل (د.ت) .

٢ – بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، جـ ٢، منشورات ذات السلاسل (د.ت) .

٣ – بونداريفسكي، سياستان إزاء العالم العربي، ترجمة خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥م .

٤ – ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، جـ ١، ترجمة ديوان أمير قطر، الدوحة (د.ت) .

٥ – جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية، ١٨٤٠ – ١٩١٤م، القاهرة ١٩٦٦م .

٦ – جورج لونشوفسكي، الشرق الأوسط في الشئون العالمية، ترجمة جعفر الخياط، جـ ١، بغداد (د.ت) .

٧ – دونالد ولبر، إيران . ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، القاهرة ١٩٥٨م .

٨ – صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥م

٩ – عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، السلام البريطاني في الخليج العربي (١٨٩٩–١٩٤٧م) دراسة وثائقية، الرياض، دار المريخ للنشر، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

١٠ – قدري قلعجي، الخليج العربي، بيروت، دار الكاتب العربي، ١٩٦٥م .

١١ – لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، القاهرة، دار الفارابي، ١٩٨٠م .

١٢ – محمد عبد العزيز عمر، أوروبا(١٨١٥–١٩٠٥م) الإسكندرية (د.ت) .

١٣ – محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية (١٥٠٠–١٧٨٩م) بغداد ١٩٨٢م .

١٤ – محمد وصفي أبو مغلي، إيران . دراسة عامة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥م .

١٥ – محمود علي الداود، الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠–١٩٦٤م) القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية العالية، ١٩٦١م .

١٦ – مصطفى عبد القادر النجار، دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨م .

ثانياً الكتب الأجنبية :

1 – Briton Cooper, Busch; Britain and the (Persian) Gulf (1894-1914), University California Press, 1967.

2 – Edward Meau Earle; Turkey the Great Powers and the Baghdad Railway, New York, 1966.

3 – H.J. Whigham; The Persian Problem, London< 1903.

4 – J.A, Saldanha; The (Persian) Gulf Precis, Vol. VIII, Archive Editions Smail, 1986.

5 – J.C, Huerwitz; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. 2, New York, 1956.

6 – Ravinder, Kumar; India and the (Persian) Gulf Region (1858-1907) India, 1965.

7 – Sir Perey Sykes; History of Persia, Vol. II, London, 1951.

8 – W. Morgan Shuster; The Strangling of Persian, London, 1912.

ثالثاً الدوريات العربية :

١ – بدر الدين عباس الخصوصي، الخليج العربي والمطامع الاستعمارية، مجلة كلية الآداب والتربية، العددان الثالث والرابع، جامعة الكويت، حزيران (يونيو) ١٩٧٣م/ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ – كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣م – ذو القعدة ١٣٩٣هـ .

٢ – النشاط الروسي في الخليج العربي (١٨٨٧ – ١٩٠٧م) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد ١٨، السنة الخامسة، نيسان (ابريل) ١٩٧٩/ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ .

٣ – طارق نافع الحمداني ، العثمانيــون والروس في الخليج العربي – دراســة في العلاقات السياسية بينهما (١٨٧٨-١٩٠٧م) مجلة الوثيقة، البحرين، مركز الوثائق التاريخية، العدد ١٦، السنة ٨، جمادى الثانية ١٤١٠هـ/ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٠م .

٤ – علي أباحسين، لمحة حول العلاقات التاريخية بين روسيا ودول الخليج العربية، مجلة الوثيقة، العدد ٣٥، السنة ١٨، رمضان ١٤١٩هـ/ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩م .

٥ – علي أباحسين، ب. ك. نارين، لمحة في بعض الوثائق التاريخية حول العوامل المؤثرة على المصالح الاقتصادية البريطانية في الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد ١٣، السنة ٧، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٦ – الفيرا فاراخوفا، المراسلات الدبلوماسية والمراسلات الشخصية المتعلقة بمسقط من خلال الوثائق التاريخية بأرشيف السياسة الخارجية لإمبراطورية روسيا في موسكو لعام ١٩٠٢-١٩٠٥، مجلة الوثيقة، العدد ٤٦ ، السنة ٢٣، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ/ يوليو (تموز) ٢٠٠٤م .

٧ – نوري عبد البخيت، الصراع بين روسيا وبريطانيا حول فارس والخليج العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مجلة الخليج العربي، العدد ٦، مركز دراسـات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٧٦م .

٨ – يفجيني سيدوروف، تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية الروسية بدول المنطقة، مجلة الوثيقة، العدد ٣٢، السنة ١٦، ١٤١٧هـ/ يوليو (تموز) ١٩٩٧ .

رابعاً : الدوريات الأجنبية :

Dr. Ali Abahussain Russian Saud Kuwait and Oman Relations.

بحث منشور باللغة الإنجليزية ، مجلة الوثيقة، العدد ٤٧، السنة ٢٤، ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٥م .

تجارة (دلمون)

تشير الدراسات التاريخية إل أن الخليج العربي، ولاسيما (دلمون)، احتل مركز الصدارة في التجارة الخارجية مع السومريين، فقد هيأت سواحله الغربية طريقا جيداً أمام وسائط النقل النهرية ؛ لضحالة مياهه وانتشار الجزر فيه، وكثرة تعرجاته، فضلاً عن توفر المياه العذبة، في نقاط معينة على الأرض والجزر، وخاصة في دلمون[١] .

لقد كانت حضارة(دلمون)مدينةً بوجودها وازدهارها لموقعها الاستراتيجي الفريد ؛ بين شط العرب ومضيق هرمز، بين وادي الرافدين والجزيرة العربية[٢].



يمع سومر

بقلم : عبد الجبار محمود السامرائي

وقد عرف سكان (دلمون) كيف يستثمرون هذه الميزة الطبيعية في التحول إلى وسطاء تجاريين لا غنى عنهم، وأصبحوا – بالتالي – يتحكمون بالنقل البحري وبتجارة الخليج[٣] ؛ وقد عبَّر الرحالة اللبناني الشهير أمين الريحاني (١٨٧٦–١٩٤٠م) عن إهمية موقع البحرين التجاري بقوله : "ليس بين مسقط والبصرة، أجمل من مركز هذه الجزيرة، وليس أصلح منه للتجارة أو الحرب . . . حيث أنها تقع في وسط الخليج العربي، وفي زاوية آمنةٍ منه، وكأنها باخرة راسية بجانب الساحل الذهبي للاحساء، رافعة لعلم التجارة[٤] .



أما السومريون، فإن افتقار بلادهم إلى المواد الضرورية لقيام الحضارة، أدى إلى دفعهم إلى العمل على توفير المواد اللازمة من الخارج، ولاسيما من بلاد دلمون، عن طريق التجارة[٥]. ولقد أقام السومريون صلات وأنشطة مع مختلف المراكز الحضارية، ولاسيما مع بلاد دلمون، التي تعد مركزاً تجارياً مهماً بالنسبة لهم، يعود بتاريخه إلى عصر فجر السلالات (٢٩٠٠ — ٢٣٥٠ق.م)، حيث كان من أولى مهام ملوك بلاد الرافدين، المحافظة على هذا الاتصال من خلال التجار الدلمونيين. فعن طريق هذا الاتصال، كانت المواد الأساسية ترد من بلاد (مجان)[٦] و (ميلوخا)[٧] مباشرة إلى مدنهم. ويعكس هذا الدور جهود ووعي تجار(دلمون)وحكمة القائمين على سياسة التعامل التجاري الذين جعلوا من بلادهم منطقة حرة، يتم فيها القيام بتبادل السلع الثمينة المتعددة المستوردة من الشرق، ولاسيما من (ماكان) و(ميلوخا)[٨].

أما التجار السومريون،فقد كانوا في خدمة الدولة والمعبد، وكانت لهم حرية ممارسة تجارة خاصة بهم، وكانوا يتميزون بموقع اجتماعي مهم في المجتمع السومري، وكان منهم من يحمل ألقاباً، كلقب (تاجر معبد أوتو)[٩] في(أور). ومن هؤلاء من كان متخصصاً في مهنة تجارية معينة، لا يمارس مهنة أخرى. وكان للتجار السومريين دور مهم في نشر معالم الحضارة السومرية من خلال رحلاتهم المستمرة إلى مناطق الخليج العربي، وخاصة إلى دلمون[١٠].

لقد كان تجار(دلمون)يأتون بسفنهم إلى (أور) يحملون ما استوردوه من تجارات من الهند أو أفريقية أو جزيرة العرب، لبيع السلع في أسواق (أور)، ثم يعودون بسلع أسواق(أور)وما جُلب إليها من الخارج إلى دلمون، وقد كان هؤلاء التجار يدفعون (العشر)[١١] ضريبة عن هذا الاتجار[١٢]، وقد عثر على نصوص تبين من دراستها أنها عقود واتفاقيات أبرمت بين تجار للاتجار بين(أور)ودلمون، بينها وثائق تتعلق بتجارة تجار قاموا بالاتجار مع(دلمون)بأنفسهم[١٣]. كما تبين من الأخبار التي تعود إلى الأسرة الثانية من أسر أور، أن سفن ذلك الزمن (٢٢٠٠ — ٢١٠٠ق.م) كانت تقوم برحلات منتظمة فيما بين (دلمون) و(أور)؛ لنقل ما يرد إلى (دلمون) من نحاس ومن أحجار ثمينة من (عُمان)، ومن ذهب وأخشاب وأفاويه ومواد ثمينة أخرى من الهند[١٤].

لقد كانت العلاقات التجارية بين (دلمون) الغنية بالمواد الخام وبلاد (سومر) جدُّ قوية، لأن (دلمون) كانت محطة مهمة للغاية، ومركزاً حيوياً للتجارة بين الهند وأفريقية وسواحل الخليج العربي والعراق (بلاد سومر)[١٥].

أهم الصادرات الدلمونية إلى السومريين

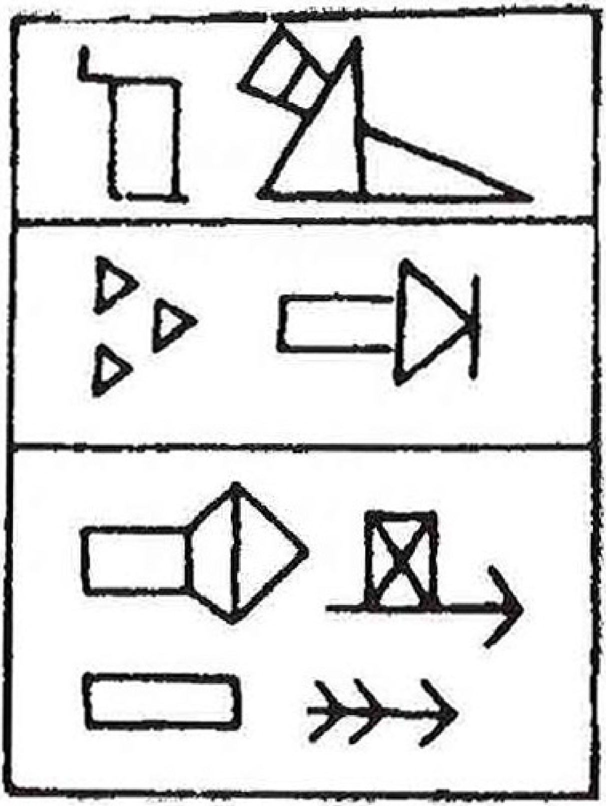
١ – الأخشاب :

▫ من الإشارات لتجارة دلمون مع السومريين، والمنسوبة إلى بعض ملوك (سلالة لكش)، نصٌّ جاء فيه : "إن سفن ديلمون تجلب لهم الأخشاب"[١٦].

▫ ومن أوثق المصادر وأهمها، النص المسماري المؤرخ في عام ٢٥٠٠ق.م، والمنسوب إلى الملك (أور – نانشة)[١٧] (Ur-Nansha) **[الشكل رقم ١]** ملك مملكة (لكش)[١٨] تمثل مراكب دلمونية تسلم شحنة من الأخشاب إلى لكش[١٩] التي سيطرت على بلاد الرافدين خلال القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين قبل الميلاد، ويشكل هذا النص إشارة لدلمون باعتبارها مركزاً تجارياً ومورِّداً للأخشاب، حيث كانت دلمون تتبادل الأخشاب مع ملك لكش مقايضة بالنحاس[٢٠].

▫ أشار الملك السومري (أور–ناشيري) (٢٤٥٠ق.م)إلى أن "سفناً تجارية من دلمون، جلبت إليه أخشاباً جيدة الصنف"[٢١].

▫ عثر على نص للملك لكش (كوديا) (٢٠٥٠ق.م) جاء فيه أنه كان يحصل على الخشب والمرمر والبرونز والذهب من مناطق دلمون وماجان ؛ لاستخدامها في أغراض شتى، كبناء المعابد، وصنع تماثيل له، تجسد حياته وأعماله المتميزة عن غيره من ملوك سلالة لكش الأخيرة[٢٢].



الشكل رقم (١)

النص الخاص بالملك أور نانشة ملك لكش (٢٢٥٠ق.م). والذي يذكر فيه أن سفناً قد جلبت إليه من دلمون الخشب . ويعتبر هذا النص أقدم وثيقة لذكر إقليم دلمون بكونه مركزاً تجارياً هاماً بالنسبة لمدن بلاد وادي الرافدين

٢ – النحاس :

• كانت مادة النحاس من مقدمات الحياة الاقتصادية في بلاد سومر . ويبدو من الكتابات القديمة أن هذه السلعة كانت تستورد مصنّعة من دلمون . أما مصادر خاماتها فقد كانت من منطقة (ماكان)، التي تصفها بعض الكتابات بـ (جبل النحاس)، حيث كان السومريون على علاقة تجارية معها ومع (ميلوخا)[٢٣] . فالنحاس كان يعاد تركيبه بإضافة نسبة من الرصاص ؛ لزيادة صلابته، ثم يحول إلى سبائك أو إلى برونز، وذلك بإضافة القصدير والرصاص، أو كانت تُنحت منه التماثيل المحلية على غرار رأس الثور[٢٤] .

والمعروف أن السومريين كانوا يجلبون النحاس من (دلمون)، التي كانت سوقاً معروفة لهذا المعدن، عند منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وذلك باستخراجه من منابعه المتنوعة، ومنها تلك التي تقع في الأقسام الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب . وكان النحاس المستورد من هذه البقاع قد صُنّف باسم (نحاس دلمون)، تمييزاً له عن النوع الآخر المعروف بـ (نحاس قبرص)، وكان السومريون يرغبون في نحاس دلمون[٢٥] .

• لقد تاجر تجار دلمونيون بصنف معقد من النحاس، فقد حولوا خامة النحاس الأحمر إلى سبائك، ليتم شحنها إلى المدن السومرية التي كانت تفتقر إلى المواد الخام في أراضيها[٢٦]، وكانت سومر تتجهز بالنحاس من دلمون على صورة قوالب وكتل، وبشكل صنوف عديدة من الأشياء المصنعة مثل : الفأس قصيرة اليد، والرماح، والحراب، والغلايات، والمناشير، والمفاتيح والصناديق، والنوافذ المشبكة ذات القضبان، والسلاسل، والبواتق[٢٧] .

٣ – الذهب والفضة :

• لقد جلب السومريون من (دلمون) الفضة والذهب، حيث كان التجار الدلمونيون يوفرون هذين المعدنين من مناطق الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وبشكل خاص من مناطق السبئيين .

وتبدو تفاصيل أحد النصوص جديرة بالذكرهنا، لما تتضمنه من نِسَب الكميات المتبادلةوحجومها، ووحدة القياس من الفضة والذهب، في مقابل تزويد التجار الدلمونيين بالحنطة والشعير والسمن المعطر بسلع معينة .

يقول النصّ :

[لو - مسلمتا ونيكيسيسا - بنا] الشريكان اللذان تسلما من [أورتماركا] ما يعادل حالياً ١٥٠٠ كيلو جرام من الزيت، و٣٠٠ قطعة منسوجة، قيمت كلها بما يعادل كيلوجرام واحد من الفضة، وذلك مقابل شراء نحاس من ديلمون . وحين وصولهما سالمين، جلبا معهما ما يعادل ١٩٠ كيلوجراماً من النحاس، مقابل الكيلوجرام الواحد من الفضة، مع حساب قيمة النقل بـ ١/١٩٠ من قيمة الفضة . والملاحظ أن هذه الكمية كانت قد جلبت من شمال (عُمان) بواسطة تجار (دلمون)[٢٨] .

« وتتضح المعلومات الاقتصادية لـ (دلمون) و (ماكان) في نصوص دينية، تتعلق بالذهب والفضة . ففي قصيدة سومريةعنوانها (إنكي ونظام العالم) نقرأ :

بلاد ماكان ودلمون، توجهت بأبصارها إلى إنكي[٢٩] وملئت قوارب دلمون، وحمّلت قوارب ماكان بكل سعتها، ونقلت قوارب ماكليـوم[٣٠] الذهب والفضة من ميلوخا إلى نفر[٣١] لأجل إنليل[٣٢] سيد العالم أجمع[٣٣] .

« لقد استخدم السومريون الذهب والفضة بعد استيرادهمامن دلمون في صناعات متعددة، كالتماثيل والأسلحة والأدوات، ولاسيما الأدوات المنزلية، فضلاً عن حلي الزينة وخيوط الملابس والأنسجة . كما عُملت بعض نماذج من الرُّقُم التذكارية من الذهب والفضة . وكان هذان المعدنان من المواد الأولية اللازمة لصناعات أخرى مكملة .

ولقد اجتهد السومريون في سبيل الحصول على الذهب والفضة من دلمون، سواء عن طريق المقايضة أو عن طرق أخرى، بما في ذلك الجزيات[٣٤] .

٤ - الأحجار الكريمة :

« كان تجار سومر يستوردون اللؤلؤ من دلمون، وقد جاء ذكر اللؤلؤ (عيون السمك) في النصوص المسمارية التي اكتشفت في المدن السومرية قبل أربعة آلاف سنة[٣٥] .

• جلب تجار دلمون الأحجار الكريمة من وسط وشرق شبه جزيرة العرب، لحساب السومريين(٣٦). وكان وادي الهندوس يصدِّر الأحجار الكريمة إلى دلمون، مثل العقيق الأحمر والعادي والجَزْع والعاج المستعمل في تزيين الأثاث وصنع الحلي الثمينة(٣٧)، فضلاً عن (اللازورد)(٣٨) وحجر النار . وهذه المواد لم تكن من منتجات دلمون، بل كانت دلمون وسيطة في تجارتها وتصديرها إلى بلاد سومر(٣٩) .

٥ - أحجار البناء :

جلب تجار دلمون لحساب السومريين بعض أنواع الأحجار المستخدمة في البناء وفي صناعة التماثيل، مقابل الحنطة والشعير والسمن المعطّر(٤٠) .

٦ - الأحجار النحتية :

استوردت سومر من تجار دلمون الأحجار النحتية الطيعة، وهي أنواع :

• أحجار رمادية متدرجة من الغوامق والفواتح، كالأحجار الصابونية(الاستيتات) Steatite، وحجر الديورايت الذي صنعت منه الحضارات الرافدية أشهر تماثيلها، منها رؤوس (كوديا) ملك لكش الموجودة في متحف اللوفر في باريس، وكذلك حجر الطلق (الكلوريت)(٤١) . [ينظر الشكل رقم ٢]

• وحجر الطلق : حجر طري يستعمل عادة في صنع الآنية المنحرفة والأختام . ولعل الأختام المصنوعة من هذا الحجر، والتي اكتشفت بأعداد كبيرة في المقابر وفي منازل (سار) خاصة، تمثل خير تمثيل دور التجار الدلمونيين ؛ إذ كان كل دلموني يضع على عنقه واحداً من هذه الأختام، وكان التجار الدلمونيون يستعملونها إلى جانب الأختام الدائرية في ختم أكياس البضائع وضمانها . وفضلاً عن دور الأختام الوظيفي هذا، فإنها تمثل شهادة أكيدة على الإبداع الفني لدى الدلمونيين(٤٢) .[أنظر الشكل رقم ٣]



الشكل رقم (٢)

تمثال (كوديا)ملك لكش (٢١٤٤-٢١٢٤ق.م) من حجر الديورايت الأسود في مقدمته كتابة مسمارية تشير إلى اسمه وأعماله في بناء معبد الإله ننجرسو، رأس التمثال نسخة جبسية



الشكل رقم (٣)

بعض طبعات الأختام المنبسطة التي تعرف باسم الأختام الدلمونية، ويلاحظ أن مواضيعها لا تختلف عن مواضيع الأختام التي عثر عليها في بلاد وادي الرافدين، وقد عثر على هذه الأختام أثناء التنقيب في منطقة سار في البحرين .

٧ - التمور :

كانت دلمون غزيرة في إنتاج التمور، بحيث تعمد إلى تصديرها، ولاسيما إلى بلاد سومر . ففي رسالة قديمةبعث بها تجار سومريون أو وكلاء لهم، كانوا يقيمون في دلمون، أو كانوا يذهبون إليها لشراء التمور ؛ نقرأ في مقدمة الرسالة ما يأتي : "أرجو الإله أنزاك[٤٣] والإلاهة مس كيلاك، إلهة دلمون، أن تحمي حياتك . ومن حولي الأخلامو[٤٤] أخذوا التمور[٤٥] . وتصف المصادر المسمارية أصنافاً كثيرة من التمور تتجاوز السبعين صنفاً . كما أنها تذكر أصنافاً بأسماء مواضعها مثل (تمر دلمون)[٤٦]، كان السومريون يستوردونها، ويرجح الخبير الزراعي الدكتور حسن مرعي ماذكره ابن وحشية، وهو من أقدم كتاب العرب في الزراعة، من أنه يحتمل أن تكون جزيرة حرقان الواقعة على الخليج العربي بالبحرين، هي الموطن الأصلي للنخيل والتمور، ومنهاانتقلت إلى بلاد الرافدين) . وفي موضع آخر يذكر ابن وحشيَة أن النخيل وجد في (تاروت) و(دارين)، وكانت (الاحساء) تسمى (ثدي البحرين) وعاصمتها الآن (الهفوف) في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، وكانت (دارين) يطلق عليها (مفتاح واحات القطيف) لكثرة نخيلها التي انتشرت منها زراعتها حتى حدود العقبة[٤٧] .

أهم الصادرات السومرية إلى دلمون

١ - المنسوجات الصوفية :

وصلنا لوح يذكر (دلمون)، وهو عبارة عن (وصل تسليم) من شخص اسمه (أوركو قائد سفينة كبيرة لعشر (طالينات)[٤٨] من أنواع مختلفة من الصوف، وضعت في سفينة تقصد (دلمون)، يعود تاريخها إلى عهد سلالة أور الثالثة[٤٩] (٢١١١-٢٠٠٣ق.م) .

٢ – الزيوت النباتية والحيوانية :

كانت هذه الزيوت، ولاسيما الزيت المصنوع من الزيتون والسمسم، تصدر من سومر إلى دلمون . واشتهرت مدينة (أوما)[٥٠] بالدهون والأغنام والماعز . وفضلاً عن ذلك العقاقير الطبية التي كانت تصنع من النباتات المختلفة، ويرجح أن العراقيين القدماء قد صدروها إلى دلمون، وكذلك الصابون وبعض العطور، منذ الألف الثالث قبل الميلاد[٥١] .

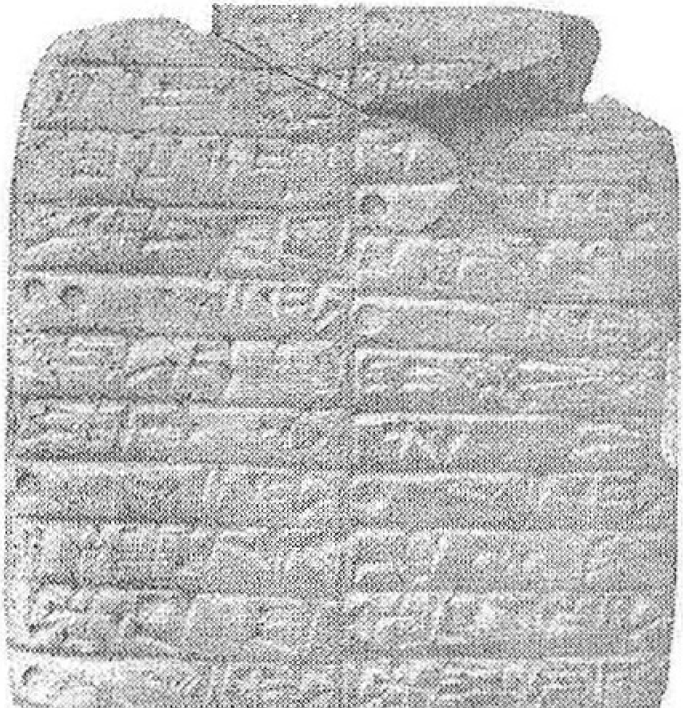
٣ – الجلود والصناعات الجلدية :

هي من الصناعات المتقدمة في العراق القديم، وكانت تصدر إلى دلمون، لتستخدم لعمل مختلف الأحذية وأغطية الرأس والحقائب وغيرها[٥٢] .

٤ – الحنطة والشعير :

إن دراسة النصوص المسمارية التي دوّنت خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، ولاسيما الاقتصادية منها والمتعلقة بمقايضة الحبوب ؛ قدمت لنا الأدلة الكافية على أن سكان العراق القديم (بلاد سومر) قد اتخذوا من الشعير دون الحنطة أساساً للمقايضة في معاملاتهم الاقتصادية[٥٣] ؛ لكن نصاً سومرياً يعود إلى (كوديا) حاكم مدينة (لكش) يذكر هذا الحاكم بأن زوجته قد أرسلت إلى (دلمون) الحبوب (الحنطة والشعير) للمقايضة بمعدن النحاس، والذي كان يجلب إلى دلمون من إقليم (ماكان)[٥٤] .

ومن الجدير بالذكر أن (كوديا) GU-de-a (٢١٤٤–٢١٢٤ق.م) كان مهتماً بالتجارة مع بلاد (دلمون)، فقد نشطت في عهده وتوسعت منافذها، وكان يقايض الحنطة والشعير بخشب الأبانوس[٥٥] [الشكلان ٤ و٥]



الشكل رقم (٤)

نص اقتصادي حوالي ٢٣٠٠ق.م مسجل فيه قروض من الشعير لعدد من الأشخاص


12 GUR ŠE UR5-RA
MÁŠ 1 GUR 1PI 4BÁN ŠE
KI NU-UR-DINGIR ŠAMAŠ
شمش نور من
NA-BI-Ì-LÍ-ŠU
ايليشو نابي
ŠU BA-AN-TI
أستلم
A-NA MAŠ-GÁ-NIM
الحصاد عند
ŠE-AM Ù MÁŠ-BI
Ì-ÁG-E
بعيد
IGI Ì-LÍ-RA-BI
امام
IGI MU-NA-WI-RUM
امام

الشكل رقم (٥)

صورة الثروة الدلمونية

في الأدب السومري

تتضح لنا صورة الثروة الدلمونية في الأساطير السومرية بشكل واضح . فأسطورة الخلق، المعروفة بـ (إنكي وننخرساك) وأسطورة (دلمون)، تربط (دلمون) بنشأة العالم، وتقدم أنشودة ثناء لهذه الأرض التي باركتها الآلهة، وحبتها بوفرة المياه العذبة، وجعلتها تشتهر بكونها سوقاً تجارية دولية . فأرض اللبن والعسل هذه، التي كان مقدراً لثرواتها أن تنقل إلى بلاد سومر، كانوا يتغنون بها على أنها المكان الملائم والمنشود للحياة الأبدية . وبناءً على المصادر المدونة المتيسرة، لا يبدو أن بلداً أجنبياً غير دلمون قد أثار اهتماماً كبيراً لدى مفكري بلاد ما بين النهرين الأقدمين . فسومر كانت تعدُّ مركز العالم، والمثال الأعلى للحضارة، وكانت (دلمون) مرتبطة بهذا التأثير ؛ حيث أنها كانت تحافظ على بقائها في النصوص الاقتصادية الرسميةالقديمة المتعلقة باستيراد المواد الخام الضرورية التي تحتاجها (سومر) للوصول إلى قدرها العظيم المنشود . ففضلاً عن أهميتها في الأمور العملية، كانت (دلمون)تتمتع بمكانة ثقافيةفريدة، وكان مردّ هذا : نمط التفكير السومري الذي كان يمجد هذه القيم التي تحافظ على الانسجام والتآلف في العالم ؛ حيث كانت التجارة إحدى هذه القيم .

كذلك يرد ذكر وإشادة لبلدان يمكن الوصول إليها عبر الخليج العربي أو (البحر الأسفل)[٥٦] في الأعمال الأدبية في ذات الوقت، مثل (دلمون) ؛ فثروات دلمون الخيالية كانت تصل بانتظام عن طريق السفن لمدة تزيد على ثمانمائة عام إلى مرافئ حواضر (أور – نانشة) ملك (لكش)، وسرجون الأكدي، ملك (أكد)، و (كوديا) ملك لكش، ثم في (أور) حاضرة إمبراطورية أور الثالثة[٥٧] [سلالة أور الثالثة ٢١١٣–٢٠٠٦ق.م]، والميناء الدولي للملوك سلالة (لارسة)[٥٨] [٢٠٢٥–١٧٦٣ق.م] فعندما يقرر إله الحكمة السومري في الأسطورة المعروفة بـ (إنكي والنظام العالمي) مصير سومر والبلدان المحيطة بها ؛

تحصل (ميلوخا) و (دلمون) على ثروات طائلة، لدورهما ذي المكانة المتميزة للسماح لـ (نيبور)[٥٩] و (أور)[٦٠]، المدينة الملكية التي تمثل سومر للاستفادة منها[٦١]:

(دع بلاد ماكان ودلمون تأتي إليّ ؛ أنا إنكي ؛

دعو المرافئ تستعد لاستقبال سفن دلمون ؛

دعوا سفن ماكان تصل الأفق ؛

دعوا سفن ميلوخا تنقل الذهب والفضة . .

أيتها البلاد الداكنة، أشجارك مورقة، تصنع منها المقاعد التي ستوضع في المكان المناسب في القصور ؛

وجميع طيورك سيكون لها ريش في لون العقيق الأحمر ؛

وثرواتك ستكون وافرة . . .)

ثم قام إنكي بتنظيف وتطهير بلاد دلمون، ووضع الإلهة ننسيكيلا[٦٢] مسئولة عنها، وجعل لها مستنقعات لكي يؤكل سمكها، ووهبها النخيل لأراضيها المزروعة لكي يؤكل تمرها"[٦٣].

وتمضي أسطورة (إنكي وننخرساك) التي تم العثور عليها في أور عام ٢١ من حكم آخر ملوك لارسة، على هيئة أنشودة طويلة حول ازدهار دلمون بسبب دورها المتميز كمركز مهم للاستيراد :

(دع أرض الأتراك تسلّم لك ذهب هرالي، لازورد . . .

دع أرض ميلوخا [تأتيك]، على سفن محمّلة بالعقيق الأحمر المرغوب والثمين ؛

أشجار ماجان . . .

دع بلاد مارهاشي [تأتيك] بالأحجار الكريمة والعقيق . . .

دع أرض ماجان [تأتيك] بالنحاس الصلب المقاوم، صخور الديورايت . . .

دع (بلاد البحر) [تأتيك] بالأبنوس، حلية [تاج] الملكية ؛

دع بلاد الخيام [تأتيك] بالصوف والمسحوق الناعم ؛

دع بلاد إيلام تنقل إليك شحنة من الصوف الفاخر ؛

دع محمية أور، حاضرة الملكية، المدينة الطاهرة، [تأتيك] بالشعير، زيت السمسم، الملابس الثمينة، على سفن ضخمة . . .

دع البحر الواسع [يأتيك] بخيراته .

في دلمون تطيب السكنى في مساكنها ؛

سيكون شعيرها شعيراً ممتازاً ؛

سيكون رطبها كبير الحجم ؛

وسيتضاعف محصولها ثلاث مرات . . .)[٦٤] .

الخاتمة

نستخلص من هذا البحث جملة حقائق، نوجزها في النقاط الآتية :

١ — كانت بلاد دلمون تتمتع بحضارة راقية، نظراً لأن شعبها كان يمارس التجارة بنشاط وحيوية، حتى أن الأساطير السومرية أطلقت على شعب دلمون (آلك دلمون)[٦٥] الذي كان يمتلك المهارة والخبرة في الملاحة ونقل البضائع التجارية .

٢ — كانت بلاد سومر، جنوبي بلاد وادي الرافدين سوقاً تجارية كبيرة لدلمون، وكانت البضائع التي يتاجر بها شعب دلمون تتألف من سبائك النحاس والذهب والفضة والأحجار الكريمة والأحجار الثمينة وأحجار البناء، والأخشاب والتمور .

٣ — كانت بلاد دلمون، سوقاً تجارية لاستيراد حاجياتهاالأساسية من بلاد سومر، وخاصة المنسوجات الصوفية، والزيوت النباتية والحيوانية، والجلود، والحبوب، كالشعير والحنطة .

٤ — إن تقدم دلمون الحضاري، كان يستند على حجم التجارة التي كانت السبيل الوحيد لتوثيق الصلات القوية بين دلمون وسومر . لذلك كان اقتصاد سومر يتأثر بتأثر

التجارة في دلمون ؛ أي أنه كان يخضع للمدّ والجزر . فكلما أصيبت التجارة بالتدهور أو التحسن، انعكس ذلك سلباً أو إيجاباً على الشعبين من الناحية الاقتصادية .

٥ – كانت دلمون في الألف الثالث قبل الميلاد، تحفل بتجارة ناشطة من بين جزر الخليج العربي، وكانت الباب المفتوح نحو الشرق ، ولا سيما بلاد سومر، ومناطق (ماكان) = (عُمان الحالية) و (ميلوخا) = (بلاد الباكستان الحالية) . ولأكثر من ألفي سنة، بقيت دلمون تجهز بلاد سومر بالمواد الخام الضرورية لبناء حضارتها .

٦ – لقد اتخذت دلمون، ميناءً تجارياً يصل (سومر) بمنطقتي (ماكان) و (ميلوخا)، وذلك لموقعها الجغرافي الهام في الخليج العربي، وقربها من الساحلِ الشرقي للجزيرة العربية، الذي كانت تفضله سفن دلمون التجاريةلنقل بضائعها ؛ نظراً لما يمتاز به هذا الساحل من ظروف جغرافية ومناخية تتناسب وحركة التجارة آنذاك، مثل : كثرة وجود الينابيع المائية والمياه العذبة، وندرة الأمطار، ومساعدة الرياح الشمالية في أغلب مواسم السنة وفائدتها في تسيير السفن[٦٦] .

٧ – كان لموقع دلمون الجغرافي، ولأهميتها التجارية والاقتصادية، ولعمقها الحضاري، أثر كبير في تأكيد شخصيتها الحضارية التي جعلتها متميزة، ليس في الخليج العربي فحسب، بل على الصعيد العالمي كله . فقد كانت دلمون ممراً دولياً لقوافل التجارة العالمية التي كانت تعبر الخليج العربي إلى العراق والبحر المتوسط، أو بالعكس إلى شبه القارة الهندية والشرق الأقصى[٦٧] .

وبحكم هذا الموقع كانت سومر تستفيد من التجارة البينية، كما تؤكد الألواح المسمارية التي عثر عليها في (أور) .

٨ – كان للمكانة الثقافية المتميزة لدلمون أثرها الكبير في اجتذاب السومريين، حيث كان الدلمونيون يعتبرون النشاط التجاري من القيم الواجب اعتمادها ؛ لأنه يساعد على اكتساب الخبرات في الملاحة ونقل التجارة، فضلا عن المساعدة على فتح الأبواب مشرعة لتعلم لغات ولهجات الشعوب، من خلال التعامل والاحتكاك المباشر .

٩ – لقد انعكس النشاط التجاري والعلاقات الاقتصادية بين شعبي دلمون وسومر في الأدب السومري، كما في أسطورة (الخلق) المعروفة بأسطورة (إنكي وننخرساك) أو

أسطورة دلمون، التي عَدَّت أرض دلمون بالأرض التي باركتها الآلهة، الأرض التي تدر اللبن وتنتج العسل . تبدأ الأسطورة تشيد بدلمون :

(مباركة هي المدينة التي وهبناك إياها، مباركة بلاد دلمون ؛

مباركة سومر . . . مباركة بلاد دلمون، مباركة أرض دلمون، أرض دلمون طهور ؛

أرض دلمون مضيئة، أرض دلمون مشعّة ؛

عندما استوطن هناك، في البدء في دلمون، في المكان الذي استوطن فيه إنكي مع زوجته ؛

[أصبح] الماء طهوراً ؛

هذا المكان مشعاً)[٦٨] .

١٠ – قدمت نتائج التنقيبات الآثارية في دلمون، معلومات مثيرة عن تاريخ وحضارة هذه البلاد، وعن مقوماتها ونشاطات سكانها، وعن صلاتهم بالخارج، ولا سيما ببلاد وادي الرافدين . وقد أسهمت الكتابات المسمارية للعراقيين القدماء في الكشف عن كثير من أوجه النشاطات التجارية بين بلاد سومر وبلاد دلمون[٦٩] .

عبد الجبار محمود السامرائي

عضو اتحاد المؤرخين العرب

الإحالات

١ – د. جعفر عباس شويلية، د. حسين أحمد سلمان : (أهم المظاهر الحضارية .. لبلاد وادي الرافدين)، كتاب تاريخ العراق قديمه وحديثه، الفصل الثالث، شركة الوفاق للطباعة الفنية المحدودة، بغداد ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٧٣ .

٢ – أسعد عرابي : (معرض البحرين – دلمون)، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢٥، يوليو ٢٠٠٠م، ص٩٢ .

٣ – حضارة البحرين .. من دلمون إلى تايلوس، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢١ يوليو ١٩٩٩م، ص١١٢ .

٤ – أحمد رمضان شقلية : الجغرافيا الاقتصادية لجزر البحرين، دراسة جغرافية واقتصادية، بغداد ١٩٨٠م، ص١٩٥ .

٥ – المرجع رقم ١ نفسه، ص٧٢ .

٦ – مجان : أو (ماكان) : هي عُمان الحالية .

٧ – ميلوخا : هي الباكستان الحالية .

٨ – هيا علي جاسم آل ثاني : الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ : صلات دلمون بأمورو وبلأموريين، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٧م، ص١٧٤ .

٩ – أوتو (U T U) (شمش) : إله الشمس عند السومريين . يأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة إله القمر، وهو ابن إله القمر . يظهر الإله (أوتو) في الصباح من الجبال الشرقية، ويرتفع في السماء، ثم يغرب في الجبال الغربية .

وحسب المعتقدات السومرية، فإن الإله أوتو (إله الشمس)، يغور ليلاً في البحر، وفي الصباح يظهر من بين الجبال . أما مشهد ظهور الإله الشمس، فمصور على الأختام الاسطوانية بهيئة رجل تخرج من ظهره أحزمة الأشعة الشمسية . وقد صُوِّر على مسلة حمورابي وهو جالس على العرش، يمسك بيده الصولجان والحلقة، وقد لبس تاجاً له أربعةأزواج من القرون ولحية، وتنبعث الأشعة من كتفيه .

د. جعفر عباس شويلية : مرجع سابق، ص٩٠ .

١٠ — د. وليد الجادر : صناعة التعدين : كتاب (حضارة العراق)، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥م، الفصل السابع، ص٢٤٤ .

١١ — العُشْر : كان المتولون لأمر الأسواق يأخذون عشور التجار . والعشر : ضريبة عامة تشمل أرباح التجارة، وهي في الواقع من أقدم الضرائب المعروفة في التاريخ ؛ فرضتها الحكومات والأديان على الأتباع منذ أقدم العصور .

للتفاصيل يراجع : د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٧، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت١٩٧٨م، ص٤٧٧–٤٨٠ .

١٢ — د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٦م جـ ١، ص٥٦٥ .

١٣ — المرجع نفسه، ص٥٦٥ .

١٤ — J.H.D. Belgrave, Welcom to Bahrain, London, 1965, p. 55.

١٥ — المرجع نفسه .

١٦ — عبد القادر حسن علي : المحطات التجارية في الخليج العربي في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، مجلة (النفـط والتنميـة)، العـدد ٧ و٨، بغداد١٩٨١م ص١٦٦ .

١٧ — أور نانشه : هو مؤسس سلالة لكش . حكم زهاء ثلاثين عاماً (٢٥٢٠–٢٤٩٠ق.م) . تميز عهده بالتعمير والاهتمام بالثقافة . أهم ما قام به : تعمير مدينة لكش ومعابدها الرئيسية، كمعبد الإله (ننجرسو) ومعبد الإلهة (نانشة) .

حسن النجفي : معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم، دار واسط، بغداد ١٩٨٢م، ص٢١٤ .

والإلهة (نانشة Nansha)، إلهة سومرية خاصة بمدينة لكش . جاء ذكرها في أكثر التراتيل . خصصت نفسها لرعاية الصدق والعدل والرحمة . وقد وصفت في إحدى التراتيل بأروع عبارات الثناء وحسن الأخلاق، وقُدِّس اسمها بصفتها محبة للخير والاستقامة .

المرجع نفسه، ص١٤٢ .

١٨ — لكش (لجش) : عاصمة أقوى وأنشط سلالة سومرية . خرائبها الآن في (تلو) . المرجع السابق، ص١٢٥ .

و (تلو) مدينة عراقية اسمها القديم (كيرسو)، وكانت مركز عبادة الإله (ننكرسو) . وجدت فيها تماثيل كثيرة لسلالة (أور — نانشي) والسلالةالتي من حكامها : (أور بابا) و (كوديا) .

تعرف آثار (تلو) في ناحية الرفاعي بين محافظتي واسط وميسان، وعلى بعد نحو خمسة كيلو مترات إلى الشرق من نهر الغراف . المرجع السابق، ص٢٠٣ .

١٩ – حضارة البحرين . . من دلمون إلى تايلوس، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢١ يوليو١٩٩٩م، ص١١٢ .

٢٠ – هيا علي جاسم آل ثاني . مرجع سبق ذكره، من ٧٨ و ٧٩، عبد العزيز علي صويلح : دلمون . . التجارة والتجار، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٣٧،ديسمبر ٢٠٠٣، ص٦٥ .

٢١ – عبد القادر حسن علي : مرجع سبق ذكره، ص١٦٧ .

٢٢ – المرجع نفسه .

٢٣ – المرجع نفسه، ص١٦٨ .

٢٤ – أسعد عرابي : مرجع سبق ذكره، ص٩٥ .

٢٥ – د. وليد الجادر : صناعة التعدين، كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥ م، الفصل السابع، ص٢٤٣ .

٢٦ – بيدر مورتنسن : معبد باربار الأثري – البحرين، ترجمة زينب أحمد، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢٦، أكتوبر ٢٠٠٠م، ص١٩-٢٠ .

٢٧ مارتن ليفي : النحاس والبرونز في بلاد ما بين النهرين، مجلة النفط والتنمية، العدد ٧ و ٨، بغداد ١٩٨١، ص١٢٧ .

٢٨ – د. وليد الجادر : مرجع سبق ذكره، ص١٦٧ .

٢٩ – إنكي Enki : إله الأرض وإله المياه الجوفية، ومرتبته بعد مرتبة الإله (إنليل) .

٣٠ – ماكليوم : نوع من القوارب .

٣١ – نفر : مدينة سومرية، كانت المركز الروحي والثقافي لبلاد سومر وأكد ، قرب مدينة (عفك) .

٣٢ – إنليل Enlil : معنى الاسم (سيد الفضاء أو الهواء) . كانت مدينة (نفر) مركز عبادته .

٣٣ – Kramer : The Sumerians, p. 174.

٣٤ – د. وليد الجادر : مرجع سبق ذكره، ص٢٤٣ .

٣٥ – د. وليد الجادر : مرجع سبق ذكره، ص٢٥٠ .

٣٦ – المرجع نفسه، ص٢٤٣ .

٣٧ – مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢١ يوليو ١٩٩٩م، ص١١٢ .

٣٨ – اللازورد Lazurite, Lapis Lzuli : ينطق بسكون الزاي . وتعني المفردة بالفارسية (أزرق) . والعرب سمّت اللازورد بـ (العوهق) .

والعوهق : طائر أسود اللون لريشة بريق، عرفه الأوروبين باسم Lapis Lazuli أي الحجر الأزرق، واشتقوا منه اسماً للون السماء .

جاء في لسان العرب : (العوهق هو الطائر الذي يسمّى الأخْيَل . وقيل العوهق لون كلون السماء مشرّب سواداً . وعوهق اللون : صار كذلك . وقيل العوهق اللازورد الذي يصبغ به . قال الشاعر : وهي وُريقاء كلون العوهق .

ابن منظور : لسان العرب مادة (عهق) .

لقد عرف اللازورد منذ القديم، واهتم الناس بزرقة اللازورد، وتتراوح زرقته مابين الأخضر والبنفسجي . لقد صنعوا من اللازورد المزهريات والتماثيل الصغيرة والعقود والمشابك والتعاويذ والعلب الفخمة وغيرها . . . إن زرقة اللازورد المدهشة جعلت منه حجراً جميلاً ذا قيمةكبيرة منذ أقدم العصور . .

للتفاصيل يراجع : د. أحمد عبد القادر المهندس : اللازورد . . حجر بزرقة البحار العميقة، مجلة (القافلة)، العدد الأول، المجلد ٤٥، المحرم ١٤١٧هـ /مايو-يونيو ١٩٩٦م، الظهران، المملكة العربية السعودية، ص٨-١٠ .

٣٩ – د. سامي سعيد الأحمد : تاريخ الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨٥م، ص٢٤٠ .

٤٠ – د. وليد الجادر : مرجع سبق ذكره، ص٢٤٣ .

٤١ – أسعد عرابي : مرجع سبق ذكره، ص٩٢ .

٤٢ – حضارة البحرين من دلمون إلى تايلوس، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢١، يوليو ١٩٩٩م، ص١١٢-١١٣ .

٤٣ – انزاك : هو إله دلمون .

٤٤ – الأخلامو : جماعة بدويــة، وهي قبائل في شمال الجزيــرة العربية، وقد ارتبطوا كليا بالأراميين .

٤٥ – Luckenbill, D.D: Ancient Records of Assyria and Babylonia [ARAB] vol. I-II, Chicgo, 1927, p. 36.

٤٦ – عبد الجبار البكر : نخلة التمر، مطبعة العاني، بغداد ١٣٩٢هـ /١٩٧٢م، ص١٠ .

٤٧ – د. حسن مرعي : النخيل وتصنيع التمـور في المملكة العربية السعودية، ١٣٩١هـ /١٩٧١م، ص٢٢ .

٤٨ – الطالين Talant : سلسلة من وحدات الوزن التي كانت مستعملة عند الأكديين والسومريين في العراق القديم . واستعمل (الطالين) أو (التالنت) حتى العهود المتأخرة في سوريا وفلسطين، وكان يساوي ٣٠٠٠ شيقل .

حسن النجفي : مرجع سبق ذكره، ص٢٠٢ .

والطالين أو التالنت يعادل ٣٠,٣ كيلوجرام في الأوزان الحالية .

٤٩ – د. سامي سعيد الأحمد : مرجع سبق ذكره، ص٢٤١ .

٥٠ – مدينة (أوما) Umma السومرية : كانت في نزاع دائم مع (لكش) على المياه والحقول . تقع آثارها في (تل جوخة) في قضاء (قلعة سكر) إلى الغرب من نهر الغرّاف بنحو عشرين كيلومترا .

حسن النجفي : مرجع سبق ذكره، ص٢١٣ .

٥١ – أ. د. فوزي رشيد : العصور التأريخية في العراق القديم، كتاب تاريخ العراق قديمه وحديثه، الفصل الثاني، ص٧٨ .

٥٢ – المرجع نفسه .

٥٣ – أ. د. فوزي رشيد : لماذا كان الشعيرأساساً للمقايضة في العراق القديم ؟ مقال في أحد أعداد مجلة (ألف باء) العراقية .

٥٤ – د. منير يوسف طه : جذور الحضارة . . دلمون فردوس السومريين، مجلة (آفاق عربية)، بغداد، سبتمبر ١٩٩٢م، ص٨٨ .

٥٥ – حسن النجفي : مرجع سبق ذكره .

٥٦ – البحر الأسفل : اسم عرف به الخليج العربي (تا متوم شابليتوم) .

د. سامي سعيد الأحمد : مرجع سبق ذكره، ص٩ .

٥٧ – سلالة أور الثالثة : قامت في مدينة أور، وتعدُّ آخر سلالة سومريةفي التاريخ . أسسها الملك أور نمو (٢١١٣–٢٠٩٦ق.م)، وكان قد تعاقب عليها عدة ملوك، كان آخرهم (أبي – سن) الذي حكم ٢٤ عاماً (٢٠٢٩–٢٠٠٦ق.م)، ثم وقع في أسر العيلاميين .

د. فاضل عبد الواحد علي : السومريون والأكاديون، كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣م، ص٨١-٨٢ .

٥٨ - سلالة لارسه (تل السنكرة) : تقع على بعد ٣٠ كيلومتراً شمال غربي الناصرية . تأسست السلالة على يد الملك (نبلانم) (٢٠٢٥-٢٠٠٥ق.م) الذي كان من أصل أموري . عدد ملوك السلالة ١٤ ملكاً، حكموا زهاء ٢٦٤ سنةخلال الفترة (٢٠٢٥ - ١٧٦٣ق.م) . وكانت هذه السلالة موالية للعيلاميين وتحت سلطانهم .

حسن النجفي : مرجع سبق ذكره، ص١٢٥ .

وفي السنة الثلاثين من حكم (حمورابي) سادس ملوك سلالة بابل الأولى، وهي سنة ١٧٦٣ق.م، حدثت معركة فاصلة مع سلالة لارسه، انتهت بانتصار حمورابي على (ريم - سين)، وبذلك حقق خطوة كبيرة نحو تحقيق سيطرته على البلاد .

د. فاضل عبد الواحد علي : مرجع سبق ذكره، ص٨٧ .

٥٩ - نيبور (نفر) : من المدن السومرية الشهيرة، تقع بالقرب من مدينة (عفك) الحالية في محافظة القادسية، على بعد حوالي ٢٥ كيلومترا من شمال شرق الديوانية على الضفة اليمنى من عقيق الفرات القديم . كانت مركزاً دينياً مهماً في العهد السومري .

د. أحمد سوسة : تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٦م، جـ ٢، ص٤١٩ .

٦٠ - أور UR (تل المقيّر) : المدينة السومرية الشهيرة . تعرف أطلالها اليوم باسم (تل المقيّر) . تقع على مسافة ١٦ كيلومترا إلى الجنوب من مدينة الناصرية الحالية . اكتشفت فيها آثار ثمينة عظيمة عن حياة سكان وادي الرافدين في فجر السلالات، منها المقبرة الملكية المشهورة، والجدار المقدس الذي شيده نبوخذ نصر،والهيكل (أي - جيش - شركال) أي (دار النور) وزقورتة، وموقع الإله القمر (ننار) والجدار الذي شيده أورنمو (٢٠٥١-٢٠٣٤ق.م) . هي مسقط رأس نبي الله إبراهيم - عليه السلام - . اشتهرت أور في عهد سلالة أور الثالثة (٢١٢٠-٢٠٠٦ق.م) . من ملوكها البارزين الملك أورنمو، مؤسس السلالة المذكورة، وصاحب الشريعةالتي تعد أقدم ما اكتشف من القوانين القديمة

د. أحمد سوسة : مرجع سبق ذكره، ص٣٤٦ .

٦١ - بياتريس أندريه سالفيني : بلاد مشرق الشمس .. صورة دلون في الأدب السومري، كتاب (بقايا الفردوس .. آثار البحرين ٢٥٠٠ق.م - ٣٠٠م)، ص٢٣ وما بعدها .

٦٢ – ننسيكيلا : الإلهة التي استودعها الإله (إنكي) دلمون التي يستدل عليها السومريون في شخص الإلهة – الوالدة ننهوساج .

المرجع السابق، ص٢٦ .

٦٣ – المرجع نفسه، ص٢٣-٢٤ .

٦٤ – المرجع نفسه، ص٢٥ .

٦٥ – متحف البحرين الوطني . . مرآة تعكس صور الحضارات العريقة، مجلة القافلة السعودية، عدد شعبان ١٤٠٠هـ، ص٩ .

٦٦ – عبد القادر حسن علي : مرجع سبق ذكره، ص١٦٦ .

٦٧ – طلال عبد الرزاق محمد علي : البحرين . . دراسة سياسية حضارية ١٣٢ – ٣٣٤هـ /٧٤٩ – ٩٤٧م، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة الموصل، ١٩٨٨، ص٢٤ .

٦٨ – بقايا الفردوس : ص٢٦ .

٦٩ – رضا جواد الهاشمي : النشاط التجاري القديم في الخليج العربي، مجلة (المؤرخ العربي)، العدد ١٢، بغداد ١٩٨٥م، ص٥٧-٨٦ .

محار البحرين

نظرة عامة

بقلم : آر. جريجوري







تراثنا

لقد احتل المحار مكانة مركزية في تراث البحرين منذ ٥٠٠٠ سنة ولعب دوراً محورياً في سمعتها وازدهارها .

في ١٨٣٨م سجل مسح بريطاني أن ٤٢٠٠ سفينة و٣٠,٠٠٠ نسمة كانوا يستخدمون لمدة ٤ أشهر في السنة في موسم الغوص لصيد اللؤلؤ، وأنهم جمعوا ٣٥,٠٠٠ طن من المحار سنوياً مما تشكل ٨٠٪ من المجموع العالمي لإنتاج اللؤلؤ الطبيعي .

ومن سوء الحظ، بظهور النفط ومجيء الكساد العالمي وترويج اللؤلؤ الصناعي، تدهورت صناعة اللؤلؤ الطبيعي وأخيراً انهارت تماماً . ومنذ تلك الأيام كانت الطبيعة سخية للبحرين التي احتفظت بثروتها في المحار في قاع البحر وهكذا توافرت للبحرين الحديثة فرصة استعادة تراثها القديم . وقد تأخرنا كثيراً في تعزيز قوى الطبيعة .

ومنذ ٧٠ سنة تكاثر المحار في قاع البحر دون جمعه طوال هذه المدة والآن ينافس المحار من أجل البقاء . وأن تكاثره واقتراب بعضه إلى البعض يؤديان إلى انتشار المرض فيما بينه . وبسبب كثرته فهو يستنفد كمية الأوكسجين والمادة المغذية الموجودة في الماء بشكل متزايد مما له تأثير سيئ على الأسماك والأحياء المائيةالأخرى .

والوضع الحالي محفوف بالمخاطر . ففي حين توجد كميات كبيرة من المحار فإنه مازال مستمراً في التوالد دون التدخل أو المساعدة من البشر، إلا أنه قد يغير الوضع إلى العكس بسرعة، ويقتل المحار بعضه بعضاً . وهكذا يقضي على تراث البحرين الذي يرجع إلى ٥٠٠٠ سنة ويضع حداً لثروتها الطبيعية الوطنية .

وإن الإمكانية الحقيقية لتجديد هذه الصناعة التاريخية وإعادة ترويجها وتطوير فرص جديدة لها ذات أهمية تجارية وبيئية، متواجدة فعلاً . وبإمكانها أن تخدم البحرين وسكانها عبر أجيال قادمة .

وفي هذه المرحلة، فمن الضروري أن نحدد هدفنا بكل وضوح، كما أنه من الضروري أن نعرف ماذا تريد البحرين أن تحرزه . هل الهدف المقصود كسب أكبر حجم من الأموال في أقرب وقت ممكن، أو تطوير عملية ملائمة للبيئة وقابلة لاستمراريتها كصناعة مزدهرة للأجيال القادمة ؟ والخيارات واضحة تماماً، أما استغلال المورد أو إدارته بالحساسية لإيجاد صناعة لا تنتج الثروة فقط، بل تحافظ على البيئة البحرية المسقبلية وتحسنها أيضاً .

وتتاح لنا على الأقل ٤ فرص تجارية واضحة المعالم في هذا المجال :

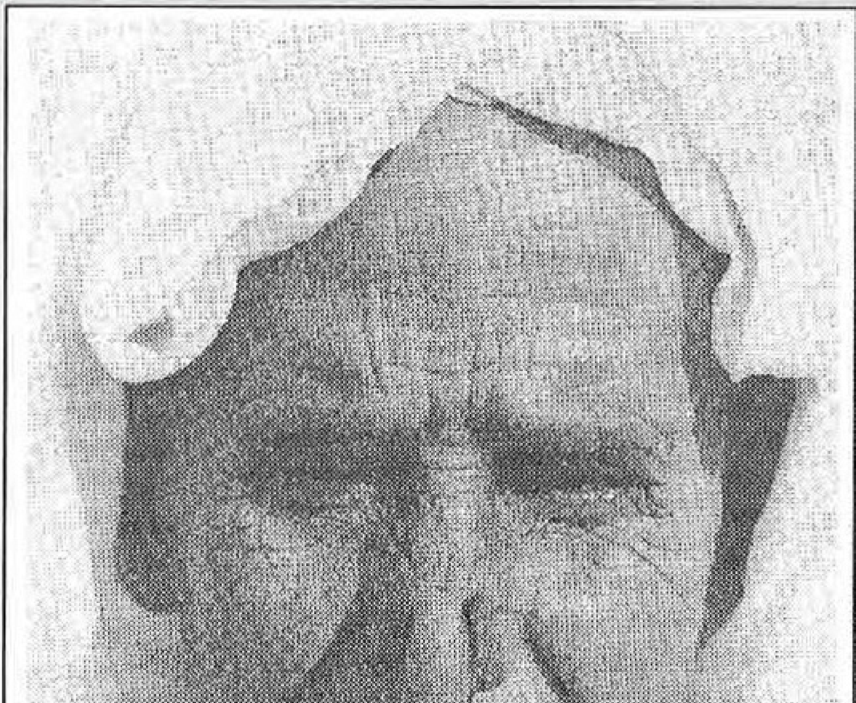
- حصاد اللؤلؤ .
- محار صالح للأكل .
- الاستخدام التجاري للصدف .
- سياحة الكائنات الحية وبيئتها، أو التراث .

يتطلب تنفيذ أي من الخيارات المذكورة توخي الحذر والتخطيط الدقيق، لأن العمليات كلها مرتبطة مع بعضها البعض، ويكون لأية عملية تأثير على الأخرى بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ومن المنظور الأوسع، تكون لكل عملية تأثيرات دائمة على تشكيل الكائنات البحرية الحية وبيئتها، إلا إذا تعرض كل نشاط فيها لإدارة دقيقة عن كثب . ويجب ألا ننظر إلى المحار ونحتفظ به وقدراته بشكل منفصل بل بمنظور شامل في ضوء البيئة المائية كلها، ويجب أن يكون الهدف، الاحتفاظ بالبيئة المائية ككل . وتتوفر الآن فرصة رائعة أمام الإنسان ليتعامل مع البيئة ويستفيد منها، ويلعب في نفس الوقت دوراً مهماً في تحسينها والاحتفاظ بها .

حصاد اللؤلؤ :

وبدلاً من أن نقوم بصيد اللؤلؤ، يجب علينا أن ننظر إلى العملية كعملية انتخاب أسرة المحار وإزالة المحار المصاب بالمرض والتخفيف من الضغط الناتج عن فرط الإنتاج . وباستخدام التكنولوجيا الحديثة (سكوبا) أي جهاز التنفس تحت الماء، يكون بالإمكان انتقائية المحار أثناء جمعه دون الانتقاص من كميته . ويجب أن يكون الهدف ترقيق وترفيع عائلة المحار وتشجيع تنشئة محار جديد نقي كي تدوم العائلة من جيل لآخر . وفي نطاق ضيق، استمرت عملية التنقية عبر السنوات الثلاث الأخيرة ضمن السياحة بين الكائنات الحية، غير أنها لم تكن ملموسة بسبب كثرة المحار .

وفي المدى البعيد، بعد إنشاء بيئة صحية في قاع البحر عقب التخفيض من حجم التلوث الأحيائي، تتوافر لنا فرصة زرع المحار وإنشاء عائلة جديدة في بيئة تكون تحت المراقبة . ويجب أن يكون الهدف تغذية ومؤازرة مزارع اللؤلؤ الطبيعي التاريخية وإنشاء مزارع جديدة .



صياد اللؤلؤ يشبك أنفه استعداداً للغوص

محار صالح للأكل :

توجد سوق كبير عالمية للمحار القابل للأكل . والمواصفات الصحية المفروضة عليه صارمة جداً . وقبل دخوله إلى الأسواق يتعرض المحار لاختبارات واسعة ودقيقة . ويشجع صيد اللؤلؤ نشوء محار جديد ويؤدي إلى إزالة المحار المصاب بالمرض وتحسين جودة المحار الصالح للأكل . ويتطلب هذا الاختيار استثماراً ضخماً لتطوير مصنع ملائم لمعالجته وتعليب لحمه . وإلى الآن لم يتم إلا أخذ عينات قليلة ولم تجر سوى اختبارات محدودة . وفي الوقت الحاضر تزود الفنادق ذات الخمسة نجوم والمطاعم الخاصة بكميات محدودة من المحار الطازج .

استخدام الأصداف تجارياً :

توجد استخدامات كثيرة تجارية لبيع أصداف المحار كطعام للطيور الداجنة وكمخصبات ويشكل منه هدايا تذكارية للسياح . وتخلف صناعة اللؤلؤ كمية كبيرة من الأصداف ذات القيمة التجارية . ولكن لاستخدام الأصداف للأغراض التجارية تأثير سلبي على نمو اللآلئ . ومن الضروري أن تعود الطفيليات التي تعيش في صدف المحار إلى أسرة اللؤلؤ كي تواصل العملية الطبيعية التي تخلق اللؤلؤ . ويجب أيضاً إرجاع لحم المحار إلى مصدره كي يكون طعاماً للأحياء المائية الأخرى . وقد تعلمنا هذه الدروس من تجربتنا عبر ٥٠٠٠ سنة ويجب ألا نتجاهلها .

سياحة الكائنات الحية والتراث :

يتزايد اهتمام الناس عبر العالم بالكائنات الحية في البيئة وبالاحتفاظ بثرواتنا الطبيعية . وقد أدى هذا الإدراك إلى نوعين من السياحة، أي الكائنات الحية/البيئة

والتاريخ/والتراث . والبحرين بلاد محظوظة لأنها غنية بالثروتين الاثنتين وستبقى هكذا إذا ما حافظت عليهما وبذلت عنايتها في ترويجهما .

والمحار واللؤلؤ من المصادر القيمة جداً ولا تقدر بثمن وهما جزءان أساسيان لصناعة تكمن فيها قدرة للنمو متاحة للبحرين . وتشهد البحرين حالياً أنشطة ذات صلة بها ولو على نطاق محدود . وتزداد البحرين شهرة كبلد سياحي وأمامها آفاق واسعة لتزدهر في صناعة السياحة .

وعلينا ألا ننظر إلى المحار منعزلاً عن نطاق أوسع لأن البيئة المائية تعتمد على حفظ التوازن الدقيق في إطارها الخارجي . ويوفر المحار للبحرين فرصة ترويج صناعة غنية مزدهرة تقليدية، غير أننا أهملناها لسنوات عدة . وبتخطيط فعال، ووضع اللوائح وتنفيذها، وإدارة كفء، لايوجد سبب من الأسباب ليمنعنا من استعادة مكانة المحار واللؤلؤ لتحقيق الفائدة .

المستقبل

تدرك البحرين القيمة الحقيقية لهدية الطبيعة لها، كما تدرك إمكان تعرضها للتلف . وفي بحثها عن الخطــوة إلى الأمـام يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية :

- تشكيل هيئة لمناقشة الموضوع وبحثه والقيام بتقييمه وتقديم التوصيات اللازمة .
- الحفاظ على البيئة المائية وحمايتها خاصة أسرة المحار .
- الإمكانات التجارية .
- السياحة الدولية .
- اللوائح .
- التخطيط على المدى القريب والمتوسط والبعيد تجارياً وبيئياً .
- تطوير التجارة .

- الهيكل الإداري والعملي .
- التربية والتعليم .
- التدريب .
- خلق الوظائف .
- التسويق .
- العلاقات العامة .
- الميزانية ومتطلبات المصادر وتوفيرها .
- أهمية القطاع الخاص ودعمه .

آر. جريجوري

من أكواتك